# معنى النص وثقافة الشارح

د. عبد الحميد بوكعباش*

**ما هو الشرح الذي يُعدّ تفسيراً حقيقياً للنص، والشرح الذي يعتبر ثقافة واستطراداً ؟**

**هل يتحمل النص، فعلاً. كل ما ينسبه إليه الشارح المفسر من معان ودلالات، وأفكار ومسائل؟، ما هي الحدود الموضوعية التي نزعم أن "معنى" النّص لا يتعدّاها عبر مختلف العصور والثقافات ؟ كيف نحكم على تأويل ما أنه استطراد غير مبرّر، أي تقويل للنص ما لم يقله؟ من يجرؤ على رسم حدود المعنى وأفق التأويل للنص الإلهي؟**

**إن الاستنتاج الذي نخرج به، في نهاية هذا المقال التأويلي، أن الحدود التقليدية التي طوقت معنى النص ودلالته. قد انهارت، مع استخدام المعرفة الحديثة في الشرح والتركيب، سوف يستغرب ابن كثير رحمه الله وكذا المنظور في فضاء الثقافة التقليدية اليوم ـ لو أنه على أمثال هذه الشروح، كيف امتدّ أفق المعنى، واتسعت دلالة النص إلى هذه المساحة كلّها، إذن ما الذي سبّب انهيار المعنى التقليدي ؟ أو بالتساؤل المقلوب : ما الذي فجّر المعنى الجديد ؟ فالانهيار هناك بسبب الظهور هنا، لأن النص إذا بدأ يكفّ، بعد فترة من الزمن، عن تأييد تفسير سابق، أو أخذ يهجر تأويلات ومعاني مضت أو بليت، فإنه ما يلبث أن ينفتح على معاني أخرى بديلة، غالبا ما تكون أكثر قربا من ظاهره اللّغوي وأحسن إقناعاً للعقول داخل الفترة التاريخية الجديدة، فالنص**

---

* أستاذ مساعد مكلف بالدروس، جامعة الحاج لخضر باتنة.

الإلهي منظوراً إليه، وهو يفسّر عبر الزمن، في الوقت الذي يستغني عن تفسيرات وروح، فإنه يأخذ بأخرى مكانها، أو قُلْ إنه لا يأخذ حتى يتخلّى، وهذا من أجل اللّحظة الراهنة التي نسميها: مسايرة النص للظروف والأزمنة المختلفة، أمّا التأويلات والشروح والمعاني المتخلّى عنها، أو المتجاوزة، فإنها لن تتبخّر وإنّما تبقى إرثاً تاريخياً له، تعكس لنا ماضي التفسير وتُرينا تطوّره عبر خط الزمن غير أنها فقدت تمثيل حاضر للنّص، في واقعنا الاجتماعي والثقافي، لأن التفسير في حركة من النمو الدّائم، وليس هذا النمو مجرّد زيادات كميّة في تعداد الشروح ولكنه تغير مطّرد في المعنى والدلالة، على سبيل المثال، أجْمَعَ القُدامى أنّ سورة الإسراء المكية تحدّثت عن وقائع هامّة مرّ بها الشعب الإسرائيلي في عصور ما قبل الإسلام، غير أنه تبيّن لنا اليوم، أن السورة تضمّنت عرضاً مستقبلياً، بالنسبة لتاريخ نزولها، طوى داخله الأحداث المفصلية التي سوف تمرّ بها الظاهرة الإسرائيلية، من البعثة إلى اليوم وما بعد اليوم.

فالتاريخ وليد الكتاب، فما يقع من أحداث في المجتمع الإنساني أو الكون المادي كان، من قبل، في الكتاب مسطوراً، أي نصا لغوياً، قبل تحقّقه في الواقع الخارجي إذن، ما الذي غير التأويل بتفصيلاته الجزئية، من "ما قبل الإسلام" إلى "ما بعد الإسلام"؟ ما الذي نقله من الماضي البعيد: (القرن السادس ق.م) إلى الحاضر الآني المعيش: (إسرائيل في فلسطين اليوم).

وكذا كان لفظ "الآية" يعني لدى السلف، وفي عرف المفسّرين: الحكم الشرعي، ولكنه يعني اليوم: الجملة القرآنية، أو الدليل الحسّي، كما أنّ ظاهر لفظ الآية: ﴿وما بثّ فيها من دابّة﴾ الشورى/29 كان مجبراً على أن يعني في عقول القدامى: "فيهما، أي في الأرض دون السماء"[1]. وبالمثل، فقد عنى لفظ: "القدر" في قوله تعالى: ﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر﴾ القمر/49 عنى للعقول داخل الثقافة السابقة: القضاء، الغيب،

المسطّر المكتوب منذ الأزل، وبذلك عدّوا الآية " حجة على المعتزلة، لأن أفعالنا "شيء" فتكون داخلة في "كل شيء" مخلوقة للّه تعالى"[2] غير أنه يعني لنا اليوم، في ضوء الثقافة العلمية ذات الطابع الحسّي : المقدار، الكمية المادية المحدّدة، والنسب المضبوطة في جزيئات الأشياء وعلاقاتها فيما بينها، أي المقدّر المعدود: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ الرعد/8 وهذه المعاني الجديدة التي أوحت لنا النصوص بها اليوم، بدتْ لنا مدعومةً بظاهرة الخطاب القرآني ومؤيدةً بسياقاته، وهنا حولنا نعدّها: مفاهيم قرآنية حلّت مكان المفاهيم السابقة، إنه التغير الذي طرأ على نظرتنا إلى العالم ومحتوياته ووقائعه. (النظرة الكونية أو الثقافة السائدة، إنما هي ذات طابع شرحي تأويلي بالضرورة. يُسحب هذا الحكم على نظرتنا المعاصرة السائدة اليوم، وعلى النظرة التي سادت قديماً، كل نظرة إلى العالم هي اعتقاد، والاعتقاد تأويل، إنّ رفض تغيير المعنى السابق، أي ترك التفسير التقليدي ناطقا باسم النص يدلّ على أن النظرة الكونية التي سادت قبل قرون ما تزال تعمل في حاضرنا الثقافي والفكري، بمختلف تأويلاتها وشروحها، الضمنية والصّريحة، وتحكم تصوّراتنا للعالم، وهذا الذي جعل منّا مجتمعاً تقليديا، يعيش ثقافة الماضي في الزمن الحاضر، أو على الأصح بدون حاضر، لأن المفاهيم والتصورات التي نحتفظ بها في وعْيِنا، لم تغيّر منذ أكثر من ألف عام، وهي نفسها المفاهيم والتصوّرات الموضوعة أمام النصوص يُعبّر بها عن مضمونها، داخل كتب التفسير والعقيدة. إن تعاقب النظرات الكونية في الزمن، أو ما نستطيع تسميته بالتطورات الثقافية والعلمية الكبرى في التاريخ، هي المسؤولة عن تراجع التأويلات التي سبق وضعها بين أيدي النصوص في الماضي، مما يؤدّي بالنصوص إلى الانفتاح مجدّداً على آفاق من المعنى والدلالة، لم تكن متصوّرةً في أذهان المفسرين داخل النظرة القديمة، وهنا نجد أنفسنا في مركز المسألة التي نودّ توضيحها، وهي مسألة: التفسير في التاريخ.

أو فهم النص عبر تطور الزمن، فالنص لا يتخلّى عن حقّه المقدّس في كل عصر. وهو: أن يُعاد تفسيره وأن يُقال فيه من جديد، لأن حدود معناه وآفاق دلالاته لا يرسمها أحد، بل تفرضها علوم العصر وثقافته وظروفه، ويسمح بها، في الوقت نفسه، ظاهر لفظه، وبما أنّه لا يوجد الفرد المتدبّر للكتاب، والشخص القارئ للنص إلا ضمن ظرف ثقافي أو موقف تاريخي محدّد، فإنه من المشروع والبديهي الانطلاق عند القراءة والتدبّر، من هذا الظرف والاصطباغ بصبغته، دون غيره من ظروف الماضي، وهنا يغدو طبيعياً اختلاف الدلالة وتنوع التأويل وتعدّد القراءة للخطاب الإلهي بموازاة التطور التاريخي للمعرفة الإنسانية.

ونتيجة لهذا التطور بالذات، نمضي إذن إلى آيات سورة الواقعة. نتدبّر معناها ونبني تأويلها انطلاقا من لحظتنا الرّاهنة، نهاية القرن العشرين الميلادي.

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم، إنه لقرآنٌ كريمٌ في كتاب مكنون لا يَمسُّه إلا المطهَّرون﴾ الواقعة/ 79 .

فرادة التشكيل الصوتي:

(لا أقسم بمواقع النجوم) هذا تعبير قرآني خالص لا وجود لمثله في أشعار العرب ولا نثرهم ولا داعي للبحث له عن نظائر في أشكال التخاطب العربي، في قول الشاعر امرئ القيس :

لا وأبيك إبنة العامري  لا يدعي القوم أني أفر. "3"

فالخطاب القرآني مؤدى بأسلوب عربي مبين، مبين عن فحواه ومراده، من غير أن يوجد شبيه له، يُمثل أو يُشرح به.

إننا هنا مع أسلوب كامل الفرادة، لا يمكن ضرب المثل عليه ببيت من الشعر أو فقرة من النثر، إلا على وجه تقريبي لكنه يكاد يكون غير مجد، فإذا أقسم الله تعالى

بظاهرة كونية: (و الشمس وضحاها )، (و القمر إذا تلاها)، (و الفجر وليال عشر...) و(والتين والزيتون وطور سينين ...)...الخ . أو نفى أن يقسم بها. كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ الحاقة/36 و﴿لا أقسم بيوم القيامة..﴾ القيامة/1 و﴿فلا أقسم بالشفق﴾ الانشقاق/16 و﴿لا أقسم بهذا البلد...﴾ البلد/1 ...الخ.، أن يقسم الله بشيء، أو بنفي أن يقسم به؛ سيان، كل ذلك تمهيد للإتيان بجواب القسم، وهو في آية الواقعة : (إنه لقرآن كريم ...) وفي الحاقة: (إنه لقول رسول كريم) و(لتركبن طبقا عن طبق) جواب الانشقاق.

و(لقد خلقنا الإنسان في كبد) جواب البلد، و(إن الإنسان لفي خسر) جواب القسم في مفتتح العصر: (والعصر)، أو قد يأتي بأقسام عدة متوالية دون أن يرتب عليها جوابا: (والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لدي حجر، ألم تر كيف فعل ربك بعاد )، كحذف جواب "إذا" في قوله : ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين يديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾ يس /45 وقوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ النور/ 10 حيث حذف جواب "لولا" .

وهناك شكل آخر من أشكال التعبير القرآني الفريد، وهو التمهيد للقسم بصوت مد وهجية لحرف أو حرفين: ﴿ق والقرآن المجيد﴾ ق/1. و:﴿ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإن لك لأجرا غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم﴾ القلم/ 3.2.1 و: ﴿يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ يس /3.2.1.

يتضح من هذا أن القرآن ذو أسلوب إعلاني جهري مدوٍّ، يصدر نازلاً من أعماق الكون ليخاطب البشرية كلها في العالم الأرضي، إن العلاقة الاعتبارية والمكانية، بين المرسل والمتلقي، هي التي تتحكم في صياغة أسلوب الخطاب، وتنعكس جليةً واضحةً في شكله ومضمونه معا، فالخطاب القرآني الصادر من المطلق إلى المقيد، من المتعالي إلى

المشروط، من الآمر إلى المؤتمر، من السماء إلى الأرض، من الأعلى إلى الأسفل، من الطبيعي أن يأتي مميزا، من حيث الشكل، بالندائية الجماعية، والجهرية المترنِّمة، فكلما كان الجمع المتلقي حاشداً، ولو بحجم سكان الأرض قاطبة، كان أدل على الموقف وأقرب إلى قصد الخطاب القرآني: ( يا أيها الذين آمنوا ) ⟸ (يا أيها الناس)⟸ (يا بني آدم). ومعلوم أنه كلما كان الخطاب موجها إلى أكبر قدر من الناس، كان أكثر ميلا لاختيار المفردات الأطول مدودا، لتحقيق الغاية المتوخاة وهي تأليف نص أكثر لحنا وإيقاعا"[4] وهذا ما يحمل كثيرا من الخطباء، على ترنيم مقتبساتهم من القرآن وهم على المنابر: دون قراءتها بإيقاع الخطبة، لإحساسهم بأن الوحي، مقروءا فقط، غير متلو، أقل تأثيراً في نفوس المستمعين، هم يدركون بأن الخطاب الإلهي سهل الترنيم طيع التنغيم، لا كخطبهم.

إن القرآن، روعي في صياغته، لا أن يقرأ في صمت، ولكن أن يرتل بصوت مرتفع، إنه بالدرجة الأولى خطاب، لا نص، صيغ لأن يتلقى مسموعا، في الأصل، قبل أن يتحول كتابة يقرأ، أداة استقباله هي الأذن لا العين، ولذا قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ورتلناه ترتيلا﴾ الإسراء/106، فالرَّتل"[5] هو التنسيق، والمرتل هو الخطاب الذي نسقت ألفاظه ورتبت عباراته لإحداث نغم غنائي مؤثر في النفس، فالقرآن بعد تثبيته كتابة صار نصًّا، إلى جانب احتفاظه بالصفات الأساسية للخطاب الديني : الجهرية والرتل والتنغيم، فالجهرية تركيب النص من ألفاظ ذات مدود طويلة لكي تلائم الصوت العالي، والرتّل هو التوزيع الصوتي المنسق لألفاظ النص، أما التنغيم، فهو النهايات المتماثلة للجمل والعبارات، الذي تحققه فواصل الآيات.

نلحظ أن تعريف الصفات الشكلية هذه، تعني في مجموعها: التنظيم المحكم الإيقاع، لكل العناصر المكونة للخطاب: الحروف، الألفاظ، العبارات، وهو التنظيم الذي يغطي النص القرآني كله، لذا تشيع مشتقات الفعل: تلا، في القرآن، أكثر من مشتقات الفعل: قرأ، تلا، تتلى، يتلى، نتلوا، أتلوا، يتلو، أتل ...الخ. أما "قرأ" فأقل وروداً، أهمّ سياقاته قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ النحل/98. وقوله: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ الإســـراء/45، وقوله: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ الشعراء/199، و:﴿ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ الإسراء/93، و﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ يونس/94، و: ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه﴾ المزمل/20، و: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ الأعراف/204، إن مشتقات الفعل : "قرأ" تعني في هذه السياقات المذكورة : تهجية النص المكتوب، لغرض الانتفاع الشخصي، من غير وجود نيّة إسماع الآخرين، أما مشتقات الفعل : "تلا" في القرآن، فتعني عموما، في سياقات ورودها المختلفة: القراءة بغرض إسماع الآخرين والتأثير فيهم، ولا شك أن هذا التأثير يتطلب من النص المتلوّ، قابلية "التلاوة" أي مصوغا صياغة صوتية مرنّمة، وتلك طبيعة النص الديني في أصله، توراتا كانت أم أنجيلا أم قرآنا أم مزامير، على اختلاف في الدرجة، وإلا فقد عنصر التأثير في المستمعين وهو عنصر مطلوب لذاته ومقصود، ولو بدون إدراك المضمون، أو المعنى الذي ينطوي داخله، قال تعالى : ﴿إنما أمرت إن اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكـــون من المسلمين، وأن أتلو القرآن﴾ النمل/92، وقال: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ العنكبوت/51. وقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى

عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ آل عمران/101. فالمأمورات الكبرى من الله لرسوله، الذي هو قدوتنا، هي عبادة رب البيت، ثم الانضمام إلى جماعة الموحدين، وبعد هما تلاوة القرآن، والتلاوة هنا، غير معني بها "قراءة" النص، بما في معنى "القراءة" من إيحاءات : الفهم والتدبر والتنقيب عن المعاني والحكم، وإنما هي مجرد "تلاوة الترنيم الصوتي، لعبارات القرآن والتلفظ بها منغمةً موزونة، أما التدبر في المضمون، وتأمل المعاني وكشف الأسرار والدلالات فعمليات عقلية تعبدية، مأجور عليها بما لا يخفى على أحد، لكن بعد تحقيق الوجود المادي للقرآن بواسطة الصوت، وهو: "التلاوة" إنها القرآن ذاته، وقع تدبره أثناءها أم لم يقع، لذا قال تعالى: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ الإسراء/78 أي تلاوته، وتحويله صوتا يسمع، وفي آية العنكبوت: "يتلى عليهم" لا: "يقرأ عليهم" لماذا؟، لأن الصياغة الصوتية الفريدة لنصوص الكتاب كانت ينبغي أن تكون وحدها كافية لإيمانهم بمصدره الإلهي، إن الله يحتكم معهم هنا، إلى "آذانهم" لا إلى عقولهم، فالأنماط الفنية السائدة آنذاك، من الخطب والقصائد والأشعار، كانت تلقى أو تنشد في الأسواق وتأسر ألباب سامعيها، ومع ذلك لم تكن مؤلّفة موسيقيًا، بشكل يجعلها قابلة لـ: "التلاوة" وإنما لـ "الإنشاد"، وهنا نجد أنفسنا بالمناسبة مدفوعين إلى طرح التساؤل : ما الذي يجعل "التلاوة" مختلفة عن "الإنشاد"؟ ما يمكن تأكيده هو أن سبب الاختلاف لا يعود إلى الأداء البشري أو إلى مجرد طريقة في التصويت بالقرآن والشعر، فنحن لا نستطيع أن "نتلو" الشعر، أو "ننشد القرآن" إلا بتكلف واضح، وإنما السبب يعود إلى طبيعة التأليف اللغوي للخطاب، بين كل من الشعر والقرآن، فهذا التأليف أو ذاك، هو الذي ينتج هنا "تلاوة" وهناك "إنشاداً" ولكن المشكلة هل نستطيع وضع أيدينا على هذا "التأليف" الذي يعد مسؤولا عن هذه الظاهرة الصوتية أو تلك ؟ والحقيقة أنه على الرغم من

إحساسنا الغامر بموسيقى القرآن، إلا أن تحديد منشأها داخل ثنايا الخطاب، قد يبقى مستعصيا إلى الأبد.

وبناء عليه، نكون على خطأ لو أننا استبدلنا : (تتلى عليكم) أو(يتلى عليهم) بـــ "تلقى عليكم" و "يلقى عليهم" وقمنا بشرح (يتلى) بـــ (يلقى) مثلا؛ وذلك لأن إلقاء الكتاب عليهم ليس آية في ذاته، إذا قرئ بتهجية عادية، وإنما الآية التي عدّها الله كافية لإيمانهم به هي : فرادة التركيب الصوتي لنص الآيات كما تقرع أسماعهم، وهي القراءة نفسها التي أدهشت المغيرة وصحبه وهم يسترقون السمع حين كان الرسول ﷺ "يتلو" القرآن داخل بيته، كما تقصه علينا السيرة، ونحن نعلم إن خلود القرآن واستمراره في الزمن محفوظا من أي تحريف أو تغيير، إنما هو بقاؤه "يتلى" كما أنزل، داخل المجتمع البشري، فالتلاوة أو "صوت" الوحي، هو جسد الوحي، أو وجوده المادي، الذي يتحقق به في التاريخ، قائما ملموسا، يفوق المضمون أو المعنى أهميّةً، إذ أن المعنى أو المضمون مَرن متغير عبر المراحل التاريخية، وتابع للشكل المادي للوحي، أي لفظه، الذي تكفل الله سبحانه بحفظه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ النحل/11 يحفظه من التغيير "اللفظي" لا التحريف التأويلي أو المعنوي الذي يظهره لنا التاريخ أمراً لا مردَّ له في الوقوع، منذ المائة الأولى إلى اليوم، فالوحي بالأساس هو: "لفظه"، المكتوب، وهذا اللفظ هو صوته أي "تلاوته"، سواء فُهم أولم يُفهم، وقد يكون هو المقصود من قوله تعالى، مخاطبا رسوله الكريم ألاّ يسارع باستظهار ما يلقى عليه من الوحي، ومطَمئناً إياه ألاّ يخشى ضياع شيء منه؛ لأن على الله مهمة :"جمعه وقرآنه"؛ أي التدوين الكتابي، في مصحف موحد، والتلقين الصوتي: (القراءات المتواترة وحي يتبع)، قرآنه = قراءته"[6] والتاريخ يحقق مقررات القرآن، فقد كتب

الوحي بأمر من الرسول ﷺ ولكنه لم يجمع في حياته، وقضى الله بهذا الجمع على يد أبي بكر وعثمان، والقصة معروفة.

بالتدوين الكتابي المجموع في مصحف واحد، الذي أجراه الله على يد الصحابة، وبالتلقين الصوتي الدقيق للمكتوب: (القراءات القرآنية) الذي كان يتعهُد به جبريل النبيﷺ مرة أو مرتين في العام الواحد، بالأمرين معا : الكتابة والقراءة، كتابة الوحي وتلاوته معا، تنقفل دائرة حفظ النص سليمة من أيّة ثغرة يحتمل منها وقوع التحريف، إنّ في اللفظة أو في طريقة قراءتها، أي نطقها، أما بيانه، تفسيره ومعناه، فمؤجل، بالحرف "ثم" ليوقعه الله في مستقبل المخاطب، ويوزعه على تاريخ البشر الطويل؛ لأن عملية انبجاس المعنى من داخل النص، إذا بدأت في العهد الأول، فإنها لن تنتهي.

لقد قال الله تعالى، معقّبا بعد إنزال (الكتاب يتلى عليهم): (إنّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)، والرحمة هي العيش في رخاء بعيدا عن المصائب والأزمات، فالرحمة تعمّ من تشملهم دائرة تلاوة الوحي، إذا استمع فقط إلى التلاوة، ولو بدون إدراك معنى ومضمون ما "يتلى" فالذي يربطنا بالوحي ويذكرنا بالله واليوم الآخر إنّما هو "ترنيمة"عبارات الكتاب وسماع تلاوته قبل القيام بأي جهد عقلي، من التدبّر والفهم لمضمون التلاوة، وقد قال الله في موضع آخر بما هو قريب من هذا المعنى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون) الأعراف/204 ـ، أنصت = سكت، المفروض عند التلاوة هو فقط: السكوت والاستماع، إنه في مثل هذا الجو من صمت المتكلمين العقلاء، لا يتحقق وحي الله في الوجود والمجتمع إلا ألفاظا في نصوص مدونة، أو أصوات مسموعة، تتلو وترنم هذه النصوص، أما مضامين النصوص ودلالاتها، ومعاني هذه الأصوات، أي ما يفهمه البشر من الوحي فشيء ثانوي متغير

ونسبي، بين الحقب التاريخية، وهكذا في مجال التفسير، العنصر الجوهري هو الشكل لا المضمون، النص لا تفسيره، الآية ذاتها، مكتوبةً أو صوتها مسموعةً، لا معناها وتأويلها.

إن النص الديني، المكون هو نفسه من لفظ ومعنى كسائر النصوص البشرية، اللفظ، مفهوماً أو غير مفهوم، هو كل شيء، فالترنيمة أهم من معناها الذي يختلف كل واحد عن الآخر في تصوره وإدراكه، ثم إن هذا النص هو قبل كل شيء صوت"7" بالمعنى الموسيقي، أي لحن وترنيمة وإيقاع يطال كل ألفاظه وحروفه، ولعل الصفة الموسيقية فيه هي المقصودة بالتشابه في قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث، كتابا متشابـــها مثانـــي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ الزمر/22. فالإثارة العاطفية المصحوبة بقشعريرة الجلد، والمتبوعة باسترخاء جسدي واطمئنان نفسي أعراض تأثير موسيقي بحت"8" فتشابه، الكتاب هنا، هو قابليته، بكافة أجزائه، للتنغيم الموسيقي، بشكل متميز عن أي نص آخر، ومن هنا ندرك أن : "حق التلاوة" للكتاب ليست هي "حق الفهم" له، كما جاء في تفسير المنـــار"9" ولكنها حق الترنّم والتغني بنصوصه، في قوله تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به﴾ البقرة/121 وهذه الآية متناسبة المعنى مع قوله تعالى : ﴿أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾ المزمل/ 4. إنه أمر بترنيم النص الإلهي مؤكد بالمصدر : (ترتيلا) تنبيها لنا إلى أهمية جمال الصوت في إحداث الأثر النفسي المطلوب، منه تناسي واستصغار هموم العالم المادي ومشكلات اللحظة الراهنة من الحياة، والتسامي إلى عالم الخير والحق والخلود، وهي مشاعر ضرورية لتعميق الوعي بالنص. وقال تعالى في الموضوع ذاته : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ الفرقان/32، رتلناه،لا تعني، طبعا، صوّتنا به، ولكن: صغناه قابلا للترنيم الجيّد.

إن الإيقاع المنظم يشيع في كل نصوص القرآن وسوره، كما يبدو واضحا أن لكل سورة من سور القرآن إيقاعا وتنغيما خاصا بها يميزها عن الأخريات، هذا بالإضافة إلى الأمر الصريح والمتكرر بترنيم القرآن عند قراءته،"[10] يرشد إلى أهمية تحقيق موسيقى الخطاب، الذي أعدَّ كل حرف فيه للتناغم معها، هذا التحقيق الموسيقي في قراءة النص الإلهي هو المسؤول عن إثارة المشاعر النفسية النبيلة، كحب التضحية ونكران الذات والاستجابة الطوعية لأوامر الخطاب ونواهيه، كما أنه من المجرب الذائع إن إثارة الانفعالات تمهيد جيد لإبداع وتركيب التصورات والأفكار حول النص والعالم : "فالمشاعر ضرورية للتفكير، والتفكير مهم للمشاعر "[11].

إنه لمن فرادة الصياغة القرآنية استهلال الخطاب بالقسم بشيء ما،: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾ التين/3.2.1، والجواب المرتب على القسم هو : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، وكذلك إعلان عدم الحاجة إلى القسم مثل قوله: ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾ البلد/ 1، و: ﴿فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق﴾ الانشقاق/16، أو القسم بدون جواب مثل: ﴿والفجر وليال عشر﴾ الفجر/1، أو التمهيد الصوتي إلى القسم:﴿ق، والقرآن المجيد﴾ ق /1، أو التمهيد الصوتي، لا للقسم ولكن للخطاب العام: ﴿ألم، الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾ آل عمران/1، أو التمهيد الصوتي المشار إليه، وكأنه قد ضمن معنى ما: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ البقرة/1 و: ﴿طسم، تلك آيات الكتاب المبين﴾ القصص/1، وفي كل ذلك ترنيمة خاصة وإيقاع مؤثر في النفس، يشعر بالتحدي وينبه إلى خطورة الموقف وأهمية الموضوع، وحين تنجح أي صياغة لفظية، أو شكل أسلوبي في إثارة هذه الإيحاءات في النفس، فإننا لا ينبغي أن نبحث لها عن نظير في المنتوج الفني العربي، بواسطة الشرح المقارن، بين الأسلوب القرآني، والاستعمالات العربية البليغة. إن في

أسلوب الآية تداخلا مضاعفا للعبارات، وهو سماه الزمخشري: اعتراضا داخل الاعتراض وهو، أسلوبيا، تقرير أمر ما، ثم التوقف مؤقتا بتقرير أمر آخر من أجل الزيادة في التوضيح، أو الاستدراك. فأصل التعبير في الآية، إن جاز لنا البحث عن "أصل" في الاستعمالات اللغوية، هو هكذا : (فلا أقسم بمواقع النجوم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) غير أن جملة اعتراضية أدخلت على التعبير الأصلي وهي: (وإنه لقسم عظيم) الغرض الأسلوبي منها هو لفت الانتباه إلى أمر هام، ثم هناك استدراك آخر داخل الاستدراك الأول، أي اعتراض ضمن اعتراض، وهو جملة:

(لو تعلمون)، ويمكن التمثيل، شكليا بكتابة الآية كالتالي: (فلا أقسم بمواقع النجوم [وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم] إنه لقرآن كريم...) إن الجملة الاعتراضية الثانية: (لو تعلمون) تفيد أن مواقع النجوم لم تكن معلومة لدى المخاطبين، بل لدى الإنسانية جميعا، حتى القرن العشرين وبعد اكتشاف ظاهرة: التوسع الكوني، التي تعدّ : "من أكبر الثورات الفكرية في القرن العشرين."[12] بعدها، عُلم شيء كثير عن مصادر الضوء والطاقة، أي النجوم، وعن العلاقة الطردية بين بعدها عنا، وبين ابتعادها في سرعة مذهلة تقترب من مصادر الضوء والطاقة، أي النجوم، وعن العلاقة الطردية بين بعدها عنا، تقترب من سرعة الضوء إن الجملة الاعتراضية الثانية: (لو تعلمون) تضمنت ـ إلى جانب أهميتها في الصوت والموسيقى ـ إحالة خارجية صادقة. حددت واقع المعرفة العلمية للمنزل عليهم، لأنه "ما قبل العلم "، كما وصفت الآية الظاهرة الفلكية موضوع القسم بأنها "عظيمة" متى عُلمت، وكذلك كان الأمر قديما وحديثا، أي قبل العلم بموضوع القسم، وبعده، قبل القرن العشرين وبعده. إن القرآن يشير إلى قصور المستوى التاريخي لمعرفة المخاطبين الأوائل، في موضوع لظاهرة، كما يقدم في الوقت ذاته وصفا للظاهرة الفلكية : "عظيم" يطابق معلوماتنا المعاصرة عنها تماما، إن

التعبير الإلهي :( ـ لو تعلمون ـ عظيم) يتضمن تأريخا للوعي بالكون، ويظهر أن هذا الوعي، يتقدم، إلى الأمام، لا العكس .

(فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)

التأويل الجديد : سليل التصور الكوني المعاصر .

للنجم "مواقع" متعددة لا موقع واحد، يعني أن له مسارا كونيا يتحرك فيه، يمكن تحديده، إن الإشارة القرآنية إلى "تعدد" مواقع النجوم يفيد أنها في حركة، وإلى هذه الحركة، حركة النجم، في سرعته وبعده عنا يعود وصف الله له بـ"العظمة"، كيف يصف الله تعالى وضعا فلكيا بأنه "عظيم" ؟ لم يكن المخاطبون بالقرآن، من السلف، "يعلمون"، أما المعاصرون اليوم فإنهم يعلمون الكثير عنه، على الرغم من أن تحديد مواقع النجوم حتى داخل مجرتنا يكاد يكون مستحيلا، بسبب بعدها وسرعة حركتها، فكيف بالنجوم التي نستقبل ضوءها من مجرات أخرى ؟.

إن محدودية سرعة الضوء: (300 ألف كلم/ثا)، والبعد السحيق، الفاصل بيننا وبين النجم المشع، يجعل لكل مصدر مضيء موقعين اثنين : 1 ـ الموقع المرصود الذي يرى فيه النجم حاليا، 2 ـ الموقع الحقيقي، الذي أرسل منه ضوءه إلينا، قبل أن يتحول عنه، منذ عشرات أو مئات أو آلاف، أو ملايين، أو بلايين السنين، حسب بعد كل نجم عنا، إن اختلاف الموقع المرصود، عن الموقع الحقيقي، للنجم، يفيد أمرين هامين، في علم الفلك الحديث : 1 ـ أن الضوء محدود السرعة، بل بطيئها، 2 ـ أن النجوم والمجرات التي تضمها، ليست ثابتة في الفراغ، بل تهوي مبتعدة عن بعضها البعض، في جميع الاتجاهات، في حركة انفجارية، من 200 كلم/ثا، إلى 200 ألف كلم/ ثانية. وعن محدودية سرعة الضوء، والحركة الانفجارية للمجرات، نشأت نسبية الزمن والمكان، وبذلك انهار التصور التقليدي للكون، المؤسس، خطأ، على تصور الفضاء المطلق،

والزمن المطلق، الذي استمر مهيمنا على التفكير الفيزيائي وكأنه بديهية عقلية لا تقبل الشك، من أرسطو إلى إسحاق نيوتن وما بعده، أي أكثر من عشرين قرنا، فالماضي والحاضر والمستقبل، قياسات زمنية مرتبطة بالكوكب الأرضي الدائر حول الشمس ولا علاقة للمجموعات النجمية الأخرى، داخل مجرتنا أو خارجها، بهذه القياسات، فحاضر مجموعة نجمية: (شمسية) ما، قد يكون ماضي أو مستقبل أخرى، والعكس صحيح، حسب موقع الحدث، وموقع استقباله، فموقع الحدث، هو دائما مركز دائرة تشكل الماضي، لأي موقع آخر يستقبل فيه الحدث، قد يعظم هذا الماضي أو يقصر، وفاقا لبعد الموقع عن نقطة الاستقبال والتلقي.

في التصور الكوني المعاصر، لكل مجموعة نجمية زمنها الخاص بها، الذي تسبح داخله، وفضاؤها الخاص بها كذلك، فلو انفجر اليوم أقرب نجم إلينا وهو : ألفا قنطورس، وتطاير أشلاءً في الفضاء، فبحكم بعده عنا بـــ : 4.3 سنوات، فإننا نستمر نراه ونرصده كما هو، دون أي تغير في موجات ضوئه المرصودة لمدة 4.3 سنة، بسبب إننا نبقى طول هذه المدة الزمنية خارج زمنه أو" حدثه " إلى أن تبلغ مراصدنا الأرضية الكارثة التي حلت به، والتي مضى عليها حسب زمنه هو 4.3 سنة، ماضي هذا النجم إذن، هو حاضرنا، إذ أن هذه الكارثة ليست في الواقع، حدثا حاضرا، وإن كنا نراها اليوم فقط، بل هي حدث ماض، لأن زمن الأحداث الكونية ينبغي أن يعتبر بـــ: الوقوع لا بـــ: "الرصد" والاستقبال الأرضي، وإلا وقعنا في أوهام كبيرة جدا، إذا نحن اعتقدنا بمركزية الكوكب الأرضي داخل النظام الكوني العام.

يمكننا أن نتصور أنه بعد ثانية واحدة من حدوث الانفجار، أخذ ماضي النجم أو ماضي الحدث يتحول إلى مستقبل لنا، يستمر هذا الماضي، في الانتفاخ الزمني، بشكل كروي، وبسرعة الضوء، مقلصا بتلك السرعة، مستقبلنا في رصده، حتى يبلغنا بعد

4.3 سنة، ليلتهمنا ضمن دائرته الزمنية المتعاظمة بسرعة الضوء، وهي حول حاضر كل الأمكنة التي تبلغها إلى ماضي، وهذا ما يجعلنا أمام حقيقة أننا: "عندما نشاهد الكون اليوم، فإنما نراه كما كان في الماضي." "[13]، أما واقع الكون اليوم وأحداثه التي تجري الآن في محيطنا المجرّي، وخارجه، فان رؤيتها ورصدها مؤجل إلى أجيال المستقبل، إنها في الطريق إلينا الآن ولم تبلغنا بعد، أما الدائرة الزمنية المتعاظمة بسرعة الضوء، للإحداث الكونية التي تبعد عنا بـ $5^9$ سنة، فلا تبلغنا إلا بعد أن تكون المجموعة الشمسية قد شاخت وتلاشت إلى غبار.

عندما شاهد العالم كله، ظاهرة فلكية، سجلها بعناية الفلكيون الصينيون في صيف عام 1054 م، وهي نجم كبير الحجم شديد اللمعان، برز فجأة في السماء الجنوبية، مزيلا ظلام الليل، وقد دام لمعانه حوالي العام ثم خفت وغاب. لم يكن يخطر ببالهم أن الظاهرة الفلكية التي يترقبونها لم يعد لها وجود حقيقي؛ إذ قد مضى على وقوعها 6000 سنة كان ذلك لمستعر أعظم : "Supernova" انفجر ببرج الثور مخلفا وراءه سحابة هائلة من الغاز والغبار، تشاهد اليوم في السماء الجنوبية وتعرف بسد يم السرطان: " CRAB NEBULA" الذي يبلغ قطره حوالي 5 سنوات ضوئية أي : $47^{12}$ كلم، هذا عن زمن الحدث، أما موقع الحدث : (مواقع النجوم) فهي نقاط أحداثه في المسار الكوني الذي ترسمه حركته في الفضاء، فذلك ما لا يمكن تحديده أو حسابه، ولكن يمكن كشف "عظمته" فالزحزحة نحو الأحمر الكونية : " Cosmological Red Shift" تفيد أن التباعد الانفجاري المطّرد بين النجوم والمجرات، أو ظاهرة التوسع الكوني : " Universe Expansion " تبدأ سرعتها من 400 كلم/ثا، حتى 270 ألف كم/ثا، فإذا كانت حركة مجموعتنا الشمسية في الفضاء هي : 200 كم/ثا، فكيف يمكن تحديد موقع نجم أخر : (مجموعة شمسية أخرى) يهوي في الفراغ الكوني بالسرعة ذاتها أو أكثر

بأضعاف، كيف يمكن تحديد موقع نجم، مثلا، قد بينت الزحزحة نحو الأحمر في طيف ضوئه انه يبعد عنا ب 50 سنة ضوئية فقط، ؟ إذ انه تحول عن الموقع الذي أرسل منه ضوءه ب $9.5 X50^{12}$ كلم، أما إذا كان النجم المطلوب تحديد موقعه ينتمي إلى مجرة تبعد عنا بملايين السنين الضوئية، فإن المهمة تتجه نحو خانة المستحيل، فإضافة إلى هذا البعد المجري السحيق فإننا نصادف أجراما سماوية تسير بسرعة تزيد قليلا عن 90 % من سرعة الضوء، وهو ما يعني أن مصدر الضوء، صاحب الزحزحة نحو الأحمر المقدرة بـ 3.4، يبعد عنا بمسافة 16 مليار سنة ضوئية"[14]، أين الموقع الحقيقي لهذا النجم ؟ انه يغير موقعه في الفضاء بـ $50^{11}$ كلم كل شهر، أما في الحالات البسيطة جدا لحركة النجوم، فإنها تغير موقعها بـ $20^{8}$ كلم كل ساعة،ترى أين موقع الكوازار: 48 C 3 ذي الزحزحة: 0.367 وقد التقطنا له ضوءه الذي كان قد أرسله في اتجاهنا قبل 5 بلايين سنة أي قبل تشكل المجموعة الشمسية، إن الوضع الحقيقي الراهن للكون والمجرات بعيد عن متناول العلم الإنساني بشكل مؤبد، وذلك بسبب أن هذا الوضع ينتقل إلى مراصدنا الأرضية محمولا على موجات الضوء البطيئة السرعة جدا 300 ألف كلم/ثا.

إن كل التحليلات والشروح والاستنتاجات العلمية مستخلصة من الأوضاع و"المواقع" السابقة للأجرام الكونية، دون أن ندري شيئا عما يحدث الآن.

إن التخلف الاقتصادي، والفقر المادي، وسوء الأوضاع الاجتماعية والسياسية، هي المسؤولة عن استمرار الأنماط التقليدية العتيقة في النظر إلى الكون والمجتمع"[15] والتاريخ، وبالتالي بقاء الرؤية الغيبية، للعالم والنص، حية فعالة، حتى داخل المؤسسات الثقافية والعلمية، فالتخلف الاجتماعي العام، هو سبب شيوع التقليد الفكري، كما أنه نتيجة له، في الوقت ذاته، في مثل هذه الحال. من الجمود الثقافي والعلمي، فان

المجتمع، بأفراده ومؤسساته، يعمد إلى المحافظة على التعريفات والمعاني الموروثة، للأشياء والعالم من حوله، والتي منها معاني النصوص؛ فالتخلف هو الذي ينتج التقليد ويشرعنه دون وعي أصحابه وممثليه، كما أن التقليد ملوذا إليه من فئـات اجتماعية مختلفة، كثيرة العدد، متوسطة التدين والثقافة، يتحول إلى قوة مادية، يعرقل ويقاوم أية حركة تستهدف القضاء على التخلف، فكل من التخلف والتقليد سبب للآخر ونتيجة له، بحيث يكون من الصعوبة التفكير : على أي ينبغي القضاء أولا، حينما يراد تحديث المجتمع، إن معاني الأشياء وتعريفاتها، والتصورات والقضايا والأفكار، إذا لم يقم المجتمع بإنتاجها لنفسه، فإنه إما أن يرثها عن ماضيه، أو يستوردها من خارج نطاق حضارته، وفي كلتا الحالين، تحيا الأجيال المتعلمة وأفراد المثقفين فيه حياة الوحشة والاغتراب عن الواقع، وذلك بسبب الاستلاب التاريخي :{نحو الماضي}، أو الثقافي: {نحو الآخر الحضاري}، وهنا تشتد تبعية المجتمع التقليدي المتخلف للأموات السابقين أو للمعاصرين الأجانب، أو ينشطر المجتمع نصفين متباعدين في الرؤى والتصور: (التراثيون والمستغربون) كما هو واقع في الجزائر، وهذا ما يعمق من وضع التخلف الاجتماعي والتنابذ الثقافي، وهكذا فالمجتمع أما أن يعيش قضاياه وينتج أفكاره الخاصة به وتصوراته للأشياء والعالم، أو تُنتج له مثل هذه التصورات والأفكار والمعاني.

الغريب أن هناك علاقة طر دية، بين تخلف المجتمع وبين تطرف أفراده في تمسكهم بتصوراتهم وأفكار سلفهم، وبمقدار هذا التمسك يكون الرفض والإعراض عن مناقشة زمنية هذه الأفكار والتصورات: (معاني النصوص ومسائل العقيدة)، مصحوبا بهلع كبير من أية محاولـة علمية لإرجاع هذه الأفكار إلى ظروفها الاجتماعية والتاريخية التي أدت إلى نشأتها وبلورتها، أي الخشية من "تزمينها"، لأنهم يودون رؤيتها أفكارا وتصورات "مديَّنة" أي ليست وليدة الاجتهاد البشري.

إن ظاهرة العودة إلى الموروث والاقتصار على تعريفات الماضين للأشياء وتفسيراتهم للنصوص، إنما هي تعبير عن أزمة مستحكمة في مجتمعنا الراهن، وينبغي أن تفسر هذه الظاهرة بأسباب اجتماعية لا دينية"[16].

لو افترضنا أن القرآن نزل حديثا، إذن لكان هذا التأويل المذكور، المعتمد على الفيزياء الفلكية المعاصرة، هو الوحيد المسطر بجوار آية الواقعة.

التلقي التشريعي للنصوص :

تفضيل التطبيقي المحسوس على المثالي المجرد، من الدلالات..

﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون،لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾ الواقعة/79.

"إنه لقرآن كريم" : جواب القسم الذي مرَّ ـ أو جواب نفي القسم ـ اسم "إن" هنا، هو ضمير الشأن: إنه، أي إن الأمر والشأن هو شأن قرآن كريم، سياق الآيات من 75 إلى 80 هو سياق التنويه بأمر عظيم، عظمة الكون والقرآن، يقسم الله بالظاهرة الفلكية العظيمة أن ما بين أيدينا هو: قرآن، ثم يصفه بعد ذلك بأربعة أوصاف: 1 ـ بالكرم، كرم المعاني والحكم، 2 ـ مكنون، أي مخفي في نص لغوي داخل كتاب، 3 ـ لا يمسه إلا المطهرون، جملة فعلية، في محل رفع صفة ثالثة للقرآن. 4 ـ تنزيل من رب العالمين، صفة رابعة أي أنه ذو مصدر إلهي، نزله الله إلى الناس تنزيلا. نحن الآن أمام صفات أربع متتالية للقرآن كلها مرفوعة والمقدر منها في محل رفع. غير أن "مكنون" جاءت في جميع القراءات بالكسر، وهذا ما يجعلها صفة لـ:"كتاب" لا لـ: " لقرآن" مما يطرح إشكالا في طريق التأويل الذي نرجحه، وبسبب هذا الكسر شاع الفهم التشريعي للآية، وأنها تتحدث عن:"الكتاب" وتصفه بـ: "مكنون" وتأمر بالتطهير الحسي : "من الجنابة والحدث" قبل لمسه، وأصبحت المسألة مادة لباب

من أبواب فقه الفروع"[17]" ثم قاد الفهم الحسي هذا إلى حديث مروَيّ عن عمرو بن حزم:" ألا يمس القرآن إلا طاهر" واستمر ميل فهم الآية وتفسيرها نحو الجانب التطبيقي الحسي: "المصحف، وكيفيات لمسه وحمله من مكان إلى آخر"، وسبب الميل نحو القراءة التشريعية للآية هو مجيء الصفة: "مكنون " مكسورة، وعندما نتساءل، ما سبب هذا الانكسار، في توالي الصفات على الموصوف الرئيسي، الذي مُهِّد له بالقسم العظيم وهو: القرآن، أي لماذا ينشأ في وصف القرآن، ثم يقع التحول عنه إلى:"الكتاب" ؟ ندرك ألا تحول هناك، من موصوف إلى أخر، في النص القرآني، وإنما هو موصوف واحد؛ وهو المبتدأ به: "القران" إما الكسر في الصفة : "مكنون" فهو كسر إتباع للكتاب، لا كسر إعراب، ككسر المثال النحوي الشهير: هذا جحرُ ضبٍّ خَربٍ، والمراد:

خربُ لأنه صفة لـــ"جحر" لا لـــ"ضبّ"

التفسير بالمعجم العربي

العودة إلى الدلالات الأصلية للألفاظ :

الألفاظ المفاتيح، في الفهم الصائب لهذه الآية، هي : " مَسَّ" و" كَنَّ" في كل تفسير صحيح، ينبغي العودة دائما إلى المعجم العربي، للوقوف على الدلالة الأساسية لكل لفظة "مفتاح"، ثم بعد ذلك يتم تعقل معنى الآية، في ضوء هذه الدلالة "الأصلية"، دون إغفال السياق العام المهيمن على النص، وهو مجمل المعنى المتبادر إلى الذهن عند أول قراءة، والسياق غير مستخلص من مجموع دلالات ألفاظ النص، بل من الخطاب العام، الذي لا يشكل النص إلا جزءا منه، انه الجو المحيط بالنص، ومعرفة هذا الجو، هل هو تشريعي، تقريري،استدلالي برهاني، تحدي تعجيزي ....الخ، مهم جدا لتوجيه معاني الألفاظ، انه منه يبدأ أي شرح أو تفسير .

وسياق النص الذي نحن بصدده، المؤكد فيه، انه ليس سياقا تشريعيا، إنه سياق برهنة واستدلال.

السياق العام للنص هو تأكيد أربع حقائق، مُقْسَماً عليها بأعظم الظواهر الفلكية : (مواقع النجوم) . 1 ـ كرم القرآن، أي كثرة عطائه من المعاني والحكم. إلا أنه، وبالرغم من سخاء القرآن، فانه 2 ـ مكنون مستتر في نص لغوي، شحيح، 3 ـ لا تنال عطاءه إلا النفوس المطهرة عن أدران الثقافات والإيديولوجيات والتصورات الزائفة. 4 ـ وذلك لأنه منزل من عند الله، وليس وليد بيئة ثقافية، أو نتاج مرحلة تاريخية، انه خارج إكراهات الزمان والمكان: "وحي ". وكلما كانت النفس المتعقلة له متحررة من هذه الإكراهات المذكورة كانت أكثر إدراكا له "ومسا" من عطائه، في هذه السياق "مكنون" صفة مضـــادة لـــ"كريم "، يقرر الوحي أن القرآن كريم مع ناس مكنون عن آخرين، قال الله تعالى: ﴿ونترل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ الإسراء/ 82 .

الفعل : مسّ

الفعل الثلاثي: "مس" في جميع سياقاته القرآنية يرادف معنى الفعل:"نال" أو: "أصاب"، ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا﴾ الزمر/49، ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز، مسنا وأهلنا الضر﴾ يوسف/88. ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ ق/ 38 وفي حديث أبي قتادة والميضأة : "فأتيته بها فقال مسوا منها الماء وتوضأوا"[18].

في التصور التقليدي الشائع، أن الآية تنهي أن يمس المصحف من كان غير طاهر من الجنابة والحدث، كما يذكر ابن كثير، ناقلا بدوره عن الطبري:"عن معمر عن قتادة : (لا يمسه إلا المطهرون )، قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون فأما في الدنيا فانه يمسه

المجوسي والنجس والمنافق والرجس"، "وقال آخرون : (لا يمسه إلا المطهرون) أي من الجنابة والحدث، ثم يضيف ابن كثير. وروى أبو داود في المراسيل. من حديث الزهري قال "قرأت في صحيفة أبي بكر بن محمد بن حزم إن رسول الله ﷺ قال: ولا يمس القرآن إلا طاهر". وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره؛ ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد اسند الدار قطني عن عمرو بن حزم وعن عبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص، وفي إسناد كلٍ منهما نظر، والله اعلم"[19] وفي إسناد كلٍ منهما نظر. رحم الله ابن كثير، فما أبداه من شك في إسناد الحديث، كان محقا فيه.

في موضوع التفسير، لكي نرجح تأويلا على آخر، ننظر، أولا، أيهما أقرب إلى ظاهر لفظ الآية، ثم، ثانيا أيهما أقرب إلى حقائق الواقع الخارجي، ( التاريخ، الكون، المجتمع). كل فهم أو تأويل جاء اقرب إلى الظاهر اللغوي للنص والى واقع التاريخ والكون، فهو أولى بالإتباع إلى أن يظهر خلافه مع مر الزمن، إذْ ما من تأويل دائم الصحة.

الفعل كنّ

الفعل كن الشيء يكنه: ستره وأخفاه، والمكنون: المخفي المستور، لو أن رواد المفسرين، في العهد التابعي وما بعـده، وهم الذين سبق لهم تحديد معاني ألفاظ القـرآن"[20] ، لو أنهم وقفوا عند هذه الدلالة الأصلية للفعل: (كن) لما شاع فهم خاطئ للآية، ولما شهد فقه الفروع بابا بعنوان: مس المصحف للمحدث والجنب، ولما عرفت العقيدة الإسلامية مسألة الإيمان باللوح المحفوظ، فالتغاضي عن "زحزحة" ضئيلة، نحو الخطأ في المعنى الأصلي للمفردة الواحدة، يتراكم بعد قرون ليتحول إلي خطأ هائل ثم يرسخ هذا الخطأ في الأذهان، فيقدم على ظاهر الدلالة للفظ الوحي، الدلالة كما يعرضها المعجم العربي، وأود هنا أن أزيد هذه المسألة توضيحا فأقول؛ إنه قد تنسى

الدلالة الأصلية، بعد أن تحتل الدلالة الثانوية أو الدلالة (الخطأ) مكانها، ويأتي شراح ومفسرو القرن الثاني والثالث الهجريين وهم أصحاب الحجاج الأصولي والفقهي والكلامي، فيستمدون من الدلالة "الخطأ" معاني وتأويلات جديدة، بعيدة عن المجال الدلالي للمفردة اللغوية، ونسمي مثل هذه التزيدات المعنوية التي قام بها المفسرون الأوائل: "الدلالات الثقافية" لألفاظ القرآن عند المفسرين، تمييزا لها عن "الدلالات اللغوية" لهذه الألفاظ، وهي كل امتداد معنوي وتوسيع مفهومي لا يخترق المجال اللغوي للفظة قرآنية ما، وهو ما تذكره معاجم متن اللغة، عندئذ يعد هذا التوسيع تأويلا مشروعا، بل قد يكون توسيعا مفهوميا مرغوبا فيه لتجديد التفسير.

فلفظ: أي، الآية: مثلا، إنما يعني، في اصل الوضع، وقبل إغراقه بالدلالات الثقافية، العلامة، الدليل، البرهان، أو حسبما تؤيده السياقات القرآنية: الجملة القرآنية، لكن شراح النص الأوائل تزيدوا في دلالة اللفظ، وجعلوه يعني:" الحكم الشرعي" رغما عنه، في دلالته المعجمية، وفي مفهومه القرآني، كما ترينا سياقات وروده في القرآن، إن معنى الحكم الشرعي المنسوب للفظ " الآية" يعد دلالة ثقافية طارئة، غير منصوص عليها في المعاجم، وتعد، في الحقيقة تجاوزا للمجال الدلالي للفظ : أي ي، لكنها هي التي شاعت بين الناس وقادتهم إلى بلورة أهم قضايا أصول الفقه والتفسير: النسخ في القرآن؛ هذه القضية بفروعها، مجرد استنطابات ثقافية مستمدة من دلالة " خطأ" للمفردة القرآنية.

إن التزيُّدات المعنوية، من قبل المؤولين مشروعة، بل مطلوبة شرط أن لا تتجاوز المجال الدلالي للفظة المفسرة، والمعاني الشرعية التي جاء بها القرآن متناغمةً مع الدلالة اللغوية لكل لفظة شاهدٌ حيٌّ على قدسية لغة المخاطبين وسلطتها.

المكنون = المستور المخفي

المكنون ≠ المحفوظ المصون

بدلا أن يتبع الشراح، الأولون، الذين سبق لهم شق الدروب الأولى لمعاني ألفاظ الوحي ( 100 ـ 200 هـ) بدلا أن يتبعوا الدلالة الأصلية : كن : ستر، أخفى، مالوا إلى تفضيل : كن، صان، حفظ، وهي "دلالة ثقافية للفعل " كن " تم اشتقاقها من الأصلية : ستر، فعلى الرغم من أن الفعل : صان، قريب الدلالة من: ستر إلا أنهما لا يترادفان، لقد قام ابن منظور باختيار المعادلة الدلالية : المكنون = المحفوظ المصون، متابعة منه للمفسرين الرواد، وكان المنهج العلمي يقتضي منه الاقتصار على الدلالة اللغوية للفعل: كنّ"[21] من غير أن يردفه بـــ"صان" و"حفظ"، متابعا في ذلك أقوال المفسرين الشارحة للآية الذين زحزحوا الدلالة الحقيقية للفعل كن نحو الخطأ بـــ: "حفظ"، وهكذا يوقعنا ابن منظور، أحيانا، في مشكلة عند إرادة شرح نص قرآني ما. وذلك حين يتجاوز مهنته كلغوي، إلى مفسر أو ناقل للتفسيرات القديمة، فنتساءل وهو يشرح لنا معنى لفظة قرآنية بلفظة أخرى في اللغة، ويرادف فعلا ورد في آية، بفعل آخر هل ذلك الشرح والمرادفة يشهد له متن اللغة وأصلها الحقيقي، أم هو من اجتهادات المفسرين الرواد؟ وذلك لأننا مطالبون، اليوم منهجيا، أن نبدأ تأويلاتنا المعاصرة للنصوص من الدلالات الأصلية لألفاظ القرآن، لا من الدلالات الثقافية الطارئة، أو "تفسيرات المفسرين"[22] بمعنى أنه ينبغي علينا أن نكون على دراية بالمستوى صفر لدلالات الألفاظ والأفعال اللغوية الواردة في القرآن، وهذا المستوى يحدده لنا المعجم الاشتقاقي، أو الدلالات الأصلية للأفعال العربية، حتى نضمن لأنفسنا ألا نبدأ من ظلال مفهومية سابقة للعبارات والنصوص القرآنية أثناء الشروع في

الشرح والتأويل، وإلا التبست ألفاظ القرآن بتحديدات غير مرئية من الوعي البشري السابق دون أن نعلم، فيضيع منا المعنى الحقيقي للآيات والنصوص إلى الأبد.

إن سياق آية الواقعة/79 يشعر أنها تتحدث عن قرآن مستور مخفي، "منبع" بعيد المنال ؛لا عن قرآن مصون محفوظ من التحريف والتدنيس عن شيء من القرآن، خفي لا يصيبه أو يناله، إلا ذوو النفوس المطهرة، لا عن "المحفوظ" من لمس الجنابة والحدث، أو لمس الكافر.

الآية تتحدث عن "الحكمة" أو "التأويل"[23] المنطوي داخل نص القرآن، الذي لا يبلغه ـ :"يمسه" ـ سوى من تطهر من قيود الرأي العام وتتره عن توجيهات المعنى الشائع وتأثير التصورات السائدة، الذي يعني تقديسها والالتزام بها نفاد حكمة النص ونضوب التأويل، لا عن "المصحف" الذي لم يكن قد سمي به الكتاب الإلهي إلا بعد وفاة الرسول عدة سنوات، الفرق واضح وجلي بين "المصحف" و"الكتاب"، المصحف جسد الكتاب ومادته الخارجية، أما الكتاب فهو مضمون المصحف ومادته اللغوية، أما "القرآن" المستتر داخل الكتاب "مكنونا" عميقا على غير المؤهلين من البشر. فكأنه مضمون المضمون، بالنسبة للمصحف. ـ الآية تتحدث عن المجرد المعقول ـ سنة اجتماعية - أما التفسير الإسلامي في مرحلته الأولى، التي تحولت إلى حجة على المتأخرين، فرأى في الآية تشريعا ونهيا، في التعامل مع المادي المحسوس : "مصحف ينهي عن لمسه، لفظة : "مس" حولتها مدارك السابقين : لمس : رغما عنها.

لم تكن العقول، في تلك الفترة، من تاريخ التطور الثقافي والعقلي"[24] مهيأة لإدراك معنى السنن العامة، أو القوانين الثابتة، التي يعبر عنها في القرآن بـــ "لا" النافية، مثل : (لا يمسه إلا المطهرون) و(والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك)، ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ النور/3 و: ﴿قال ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ البقرة/

124 : و﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ البقرة/256 ... الخ، فقاموا بتحويل الأمر التكويني، الذي تتبعه المكونات قسرا. إلى أمر تشريعي، تطالب الكائنات العاقلة بامتثاله اختيارا في سلوكاتها العملية، ولهذا قال ابن كثير : "قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب " مع أن الآية تخبر عن قانون عام وهو : "لا يصيب حكمة النص إلا مستقلو العقل والتفكير". ولا تطلب أو تشرع منع لمس المصحف للمحدث والجنب.

الفكر التأويلي : تطبيع المعنى وتطويع اللفظ :

إنما هي طبيعة الفكر التأويلي القائم على إعادة ترتيب المعنى حسب المستويات المعرفية السائدة، التي ينغمس الفكر المؤول في ظلها، دون أن يشعر انه خاضع لها، مما يقوده إلى حد التصرف "اللفظي" في النص، ثم يجد لهذا التصرف تبريرا أسلوبيا، قال أبو حيان : "واحتمل أن يكون نفيا أريد به النهي، فالضمة في السين إعراب، واحتمل أن يكون نهياً فلو فك ظهر الجزم، ولكنه لما أدغم كان مجزوما في التقدير، والضمة فيه لأجل ضمة الهاء"[25]. وقد تصل التصرف اللفظي حد : المساواة بين الأشياء المتخالفة، إذ أن مهمة التأويل في جميع العصور هي : تطبيع الغريب المجهول، أي جعل دلالات الألفاظ ومعاني النصوص مساوية للمعهود الشائع، أي معاني طبيعية عادية داخل الفترة التاريخية التي يجري فيها الشرح والتأويل ليحدث ما نسميه بالقفز والتغاضي عن المعوقات اللفظية، وليس فقط المعنوية إذ هذه الأخيرة أكثر سهولة على التطويع ثم تسوية هذه المعوقات بسقف المعرفة السائدة، أو بعالم الشراح والمفسرين وثقافتهم القائمة، مثال ذلك، في الآية، التي نحن بصدد تفسيرها، ما جاء في تفسير ابن كثير : " قالوا : والمراد بالقرآن ها هنا، المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو". "والقرآن لا يرادف

المعنى مع "المصحف"، في الواقع التاريخي ولا في المعجم التفسيري، إذ كان هناك على الأرض، وفي التاريخ قرآن وكتاب في الفترة المكية الأولى، فالسور المكية المبكرة تتحدث عن "القرآن" و"الكتاب" قبل أن يكتمل الوحي ويجمع في مجلد، أما المصحف فلم يأت له ذكر حتى في آخر السور المدنية نزولا، لأن المصحف ككتاب مجلد لا يقدم أية دلالة على صدق الوحي وأصالته الإلهية، فالتوراة ككتاب مجلد، ما يزال محفوظا مصونا معتنى به، بالرغم من التحريف الذي طال مضمونه، فالقرآن أو الكتاب، اسم لا يطلق على المصحف المجلد، ولكن على الخطاب اللغوي الذي بداخله لا الخطاب اللغوي المقروء المجسد في كتابة، ولكن الخطاب "المسموع" المجسد في أصوات، فلو أحرقت كل مصاحف الأرض المطبوعة منها وغير المطبوعة، لبقينا نتحدث عن "كتاب" الله و"قرآنه" ما دام أصواتا في الصدور، لا كتابة على الصفحات، ونحن نعلم أن أول إجماع للمسلمين خارج النص كان على :" كتابة " الوحي أيام أبي بكر الصديق وبمشورة عمر رضي الله عنهما، وقد قال المكلف بالمهمة : زيد بن ثابت، مستغربا : "كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ" فالمصحف أول بدعة في الإسلام نالت استحسان المسلمين :"إنه والله خير" كما كان يحث عمر، لذا لا يمكن أن يراد بـــ"القرآن" في الآية : "المصحف" .

(لا يَمَسُّه إلا المطهَّرون) : المطهرون عـــقلا.

القرآن كريم، وافر المعاني والحكم، غير نافد الدلالات، لكنه بالرغم من كل ذلك تخفي معانيه على غير مطهر العقل، لأنه تنزيل من رب العالمين، ومادام نصا غير تاريخي ولا زمني، بل منزل من السماء، فحكمه ومعانيه تتجدد لمن يجدد وعيه ويتخلص من تأثير سابق معرفته وتوجيه ثقافته، إن التصورات والاعتقادات والمعارف، إذ طال ركودها واستبدت بالعقول مدة من الزمن دون خلخلة وتحريك، أسنت، وصارت

دنسا كثيفا على صفحة العقل تمنعه من أي تجديد في الرؤية والوعي بالأشياء والعالم من حوله، فالأفكار السابقة، في الوقت الذي تؤسس لنا بناء تاريخيا مفيدا من المعرفة والإدراك، ننطلق منه في الوعي بالعالم، قد يتحول هذا البناء ذاته إلى عقبة أو حائلا كثيفا دون رؤية الحقيقة، لذا كان التطهـــر منها ـ الأفكار السابقة ـ بواسطة وضعها على محك النقد والمراجعة، أمرا لا مفر منه، لمواصلة بناء صرح العلم والحضارة الذي لا يكتمل، أو لمواصلة استدرار المعاني والحكم من النص الإلهي.

مس القرآن مقصور على المطهرين لكن الشرح التقليدي لم يعمق التساؤل مطهرون من ماذا ؟ أهم المطهرون حسيا من الحدث : (الأصغر والأكبر) كما يقرأ الفقهاء، أم نفسيا من الذنب والمعصية، كما وسع تأويلها فيما بعـــد، أم المطهرون ذهنيا من الخطأ والوهم كما ينبغي علينا أن نتأولها اليوم .

لكي ندرك مفهوم : (المطهرون) في الآية، علينا أولا أن نطهر أذهاننا نحن من ضغط وتوجيه المعنى السائد في فهمها، ونحرر عقلنا من الدلالة التقليدية المتبعة للفظة، إذ ليس الجسد وأعضاؤه فقط هو موضوع عملية الاتساخ والتطهر، ولكن كذلك، وعلى وجه أخص : النفس والعقل، وهذا بدلالة لفظ الآية : مس، الذي يغلب على استعمالاته القرآنية معنى : نال، أصاب، حيث الفاعل شيء معنوي مجرد مثل : ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ آل عمران /140 و﴿قالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ الأعراف/ 95 و﴿إن الإنسان خلق هلوعا إذ مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا﴾ المعارج/20.

طَهُرَ يَطْهُرْ طُهراً وطُهُوراً . الشئ صفا، زال ما به من وسخ مادي، طهر يطهر طهارة، ذهنه أو نفسه، صفا وزالت عنه التأثيرات السابقة أو طهرت نفسه، خلصت من المشاعر السيئة والوساوس الضارة إن في التطهر الحسي، الذي افترضه الدين على

الإنسان يواليه على جسمه وجوارحه، بعد كل حدث أو جنابة أو حيض في اليوم الواحد أو الأسبوع أو الشهر، لرمزا وإشارة إلى وجوب تجديد أدوات التفكير والادراك فالملكات النفسية والذهنية تطهر بإزالة الرواسب عنها من الوساوس والأوهام والاعتقادات والتصورات الخاطئة، بعد كل برهة من الزمان وعقب كل حدث ما، تنشيطا للأداة وتحسينا لأدائها.

إن "الحدث" سواء كان بالمفهوم الفقهي أو بالمفهوم السياسي أو العلمي أو الاجتماعي، إنما هو واقعة خارجية متجددة الوقوع، يجدد بعدها الشعور الديني، وتعاد لأجله صياغة الاعتقادات والأفكار والمواقف، حول الطبيعة والمجتمع والإنسان، فبعد كل حدث تجدد الصلة بالله، كما ويعاد تعريف الأشياء، وتجدد المواقف والتفسيرات، وله تغير الأفكار والتصورات، فأدوات الادارك والوعي، كأعضاء الوضوء، تطهر دوريا من بقاياها ورواسبها، وتحرر من منتوجاتها وفضلاتها بشكل متكرر لا يفتأ، كظاهرة الشروق اليومية والأهلة الشهرية والفصول السنوية، إن العقل كالنفس والجسد، أدوات يتجدد نشاطها إذا هي تحررت من هيمنة ما تفرزه، وسلامة هذه الأدوات لا تقاس بمقدار منجزاتها من التراث المعرفي القائم، ولكن سلامتها في "عملها" في عملية الإنتاج، لا في المنتوج المنفصل عنها ، في نشاطها الذي يتناول كل شئ ، بما في ذلك طبيعتها هي وحقيقة عملها، تتطهر هذه. الأدوات ويستمر أداؤها سليما في بناء الحضارة إذا راجعت نفسها وعادت علي ذاتها بالنقد والنقاش والمراجعة، وتخلصت من أسر منتوجاتها وثارت عليها وعلي ذاتها، فالفهم وإعادة الفهم، أهم من المفهومات، كتفسيرات قارة للأشياء والعالم من حولنا.

كما أن إعادة التعقل أثمن من المعقولات كلها، والصياغة المستمرة للتصورات وإعادة تعريف المعرَّفات، بناء على مستجدات الوقائع والأحداث والمكتشفات، أهم

من مجموع التصورات والمعارف القائمة، وكأن قيمة التفكير هي في تجاوز ذاته ومحصوله الناجز من العقائد والأفكار إذن فالتفكير كعملية "تنجز" لكن دون أن تكتمل يوما، انفع للمجتمع والحضارة، من الفكر كنتائج مدونة منجزة، إن ما يضمن مساس حكمة القرآن، على مر العصور هو استمرار تعقل العالم والنص، والتفكر فيهما بأسلوب مستقل من أجل تأويلهما مجددا، والذي وقع في تاريخ الإسلام هو اعتبار المتأخرين لتعقلات السلف ونتائج تفكرهم في العالم والنص، حقائق ثابتة، أو " قضايا خالدة" لا تتغير، أن تزمين"[26] التعقلات السابقة وتبيئتها"[27] الاجتماعي والسياسي، إنما يعني التطهر من تأثيرها الذهني وتوجيهها المعرفي، وأيضا من نمذجتها الدينية، وفي القرآن بيان صريح يؤكد، في سياقين، مختلفين، : المسؤولية الذاتية لكل جيل عن تجربته الخاصة به، في علاقاته مع لله، دون أية سلطة أو شرعية، لجيل على آخر ﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ البقرة/134 و141 .

المطهرون نفسا :

هذا عن المطهرين عقلا، أما المطهرون نفسا، فهم المجاهدون لها، ومجاهدة النفس هي التعرف عليها والوعي بأطماعها ومراقبة رغباتها ومخاوفها من أجل التخلص من الأوهام والوساوس والمشاعر السيئة التي تعرض لها في كل لحظة"[28] إن التطهر النفسي اطراح آني متكرر للوساوس العارضة ، ونبذ ومدافعة مستمرة لرغبات الذات وأطماعها، يصاحب ذلك عملية استبطان عميقة يقوم بها لذاته، لتصبح ذاته موضوعا منفصلا عنه، يراقبها في وعي واضح بنزعاتها، ومن راقب نفسه أو ذاته صفت له، وسهل عليه ملؤها بالمشاعر الطيبة وهذا ما يسميه القرآن : "التزكية" : ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس/4، دسى نفسه أخفاها عن مراقبته العقلية ومراجعته الموضوعية، وتركها تحقق له أطماعه الخفية ورغباته وكأنه لا يراها، من

التدسية، وهو الإخفاء المتعمد لشيء في طيات شيء آخر، والفضيلة النفسية هي مد وجزر بين التزكية والتدسية، إنها توبة يومية إلى الحق واعتراف متكرر بالوقوع في الخطأ، مثلها كمثل التطهرات الجسدية التي يقوم بها الفرد في اليوم والليلة، وإن لم تتسخ أعضاؤه وجسده، فعقل الإنسان ونفسه، في حاجة إلى مسح وإزالة متكررة للعوائق والرواسب الذهنية السابقة التي تعلوهما مع الوقت فتعيق أداءهما، كمثل هذه الاعضاء المادية تماما.

إن الملكة الذهنية كالعضو المادي، ما يبقيه قويا نشطا هو استعماله، إلا أنها هي أيضا، تنهكها " الرواسب"، والرواسب نتائج هذا الاستعمال بالذات حين يطول الاحتفاظ بها دون اطراح لها أو استبدالها"[29].

تصدق هذه الفكرة على مستوى الكيان البيولوجي للفرد الواحد، كما تصدق على مستوى الكيان الحضاري العام للأمة.

المفهوم ونقيض المفهوم :

يبدو أن الثنائية أو المقابلة : المفهوم ومقابله، المعنى وضده، تتحكم في جل قضايا الفكر الإنساني، وكأن الفكر ذاته، كاللغة التي يتجلى فيها، ذو بنية ثنائية تقابلية ، فتعريف شيء ما تعريفا جامعا إنما يتحقق بتعريف نقيضه، لا بما هيته، كاللغة، التي تحكم عناصرها، من الألفاظ والحروف، قيم تقابلية"[30]، وحتى عالم الوجود الواقعي، سواء كان مادة جامدة أو حية، عضوية نباتية أو حيوانية أو عاقلة، ذو تركيبية زوجية متقابلة، تقابل الذكر والأنثى"[31] والقرآن الكريم، يقرر في وضوح عجيب هذه الحقيقة الكونية : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ الذاريات/ 49، و"الشيء" هنا، لفظة تطلق قرآنيا على الموجودات المادية، ويفصل القرآن خضوع المادة الجامدة والمتعضية، النباتية والحيوانية إلى التركيب الزوجي : ﴿سبحان الذي

خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ يس/36، أي مما لا يعلمون آنذاك عن بنية المادة، حتى القرآن، وهو عالم القول والكلمة، أو المخطط النظري المكتوب لعالمي الغيب والشهادة معا، يصف لنا نفسه بأنه : "ثنائي" التركيب : "مثاني"[32] ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ الزمر/23. وبهذا التقرير القرآني تتأكد الثنائية في شكلها النظري العام، لا التطبيقي الخاص، أنها من صميم الفكر والوجود.

إن ما يقابل "المطهَّرين" في السياقات القرآنية الخاصة هم : "المرجّسون" قال الله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس، أهل البيت، ويطهركم تطهيرا﴾ فالطهارة يقابلها الرجس لا "الحدث"، والحقيقة أن الطهارة والرجس تعبران، في اصل اللغة عن غياب القذر وحضوره، أي الاتساخ والنظافة، فطهر الشيء صفا من مخالطة غيره وعاد إلى نقائه الطبيعي، ورجس الشيء خالطه القذر واتسخ، ضد معنى طهر.

الطهارة والرجس في القرآن.

يطلق القرآن الأوصاف المادية : رجز، رجس، نجس، على الأخلاق المعنوية في الإنسان، يقول صاحب لسان العرب : " الرجز، القذر مثل الرجس، والرجس القذر، وكل قذر رجس، والقذر: ضد النظافة ."[33]

قال الله تعالى : ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ التوبة/28 . وفي الذين طبع الله على قلوبهم ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف يقول تعالى: ﴿فأعرضوا عنهم فإنهم رجس﴾ التوبة/95. فالمشركون والمنافقون إذن نجس ورجس، ولكن لا بأجسادهم بل بمشاعرهم وأحوالهم النفسية، وهذا ما يجعل بالمقابل لذلك، فعل "التطهر" بالمفهوم الديني، كفعل "التزكية" تماما، : تنقية روحية وترويضا

خلقيا، يجريه الشخص على ذاته، لتنمية النوازع والملكات الطيبة، فتنقمع، تبعا لذلك، الغرائز الحيوانية المنحطة فيه، وليس التطهر تنظفا مائيا .

الموارد القرآنية للفظتي : الرجس، والرجز، تبين إن لهما ثلاث دلالات : العذاب، الوسواس، القذر، قد يكون لهذه المعاني الثلاثة أصل جامع بينها، وهو العذاب، فالعذاب وسواس، إذن، الوسواس عذاب، لكن بأي معني يكون العذاب والوسواس قذرا أو تلوثا واتساخا ؟ قال الله تعالى : ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه، إذا هم ينكثون ﴾ الأعراف/135، وقال : ﴿ويترل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب رجز الشيطان﴾ الأنفال/11، فالرجز هنا عذاب نفسي يسببه وسواس الشيطان إلى أنفس المؤمنين، في موقف الابتلاء الشديد الذي ذكرته لنا قصة نزول الآية، والذين يتحدون التعليمات الدينية في ملابسات حياهم الفردية والاجتماعية، فيناهضون هذه التعليمات (الآيات) أو يستهترون بها، يقول القرآن، في متاعبهم وشقائهم النفسي والجسدي : "34" ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين، أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ سبأ/5 وقال تعالى : ﴿وثيابك فطهر والرجز فاهجر﴾المدثر/5 فمن تطهر انتفى عنه الرجز أو نفاه عن جسده، وهذا معنى حقيقي يجعل التطور عملية حسية : (بالماء) يزيل عن جسمه الوسخ، (الرجز) لكن المعنى المجازي في الآية هو المراد فطهارة الثياب ونقاء الثوب، ونظافة السراويل، تعبيرات للكناية عن سلامة الجوارح والجلود (التي تشهد علينا يوم القيامة)، فنظافة الجارحة الخارجية، أو الملكة الذهنية الداخلية هو خلوها من الرجز، أي القذر الذي يسبب لها ألما وعذابا، لأنها خالفت كلمة الله : الشرعية والكونية، لكن الشيء المحير هو : لماذا يعد القرآن هذه المخالفة : قذرا وتلوثا، يسبب عذابا في الحياة، كما يبعد عن إدراك معاني القرآن وحكمه ؟ قال الله تعال : ﴿وما كان لنفس إن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس، على الذين لا

يعقلون﴾ يونس/100. فالحقائق الإلهية محجوبة عن عقول المُرجَّسين، زيادة على كونهم في ضيق واختلال نفسي دائم وهو : الرجس : (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء)، ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ الأنعام/125، كما إن مرضى النفوس، المعارضين لانتشار الخير في المجتمع والمعادين لأي دعوة أو تغير نحو الامثل يشمل الناس جميعا، كان يزيدهم نزول الوحي على الرسول ألما في قلوبهم : ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ التوبة/126. وذلك بسبب حسدهم أولئك الذين ستحررهم الدعوة الجديدة وتعلي مكانتهم في المجتمع .

إذن يمكننا استخلاص أن إثم الجوارح كاتم القلوب وخطأ العقول : رجس وقذارة، يحدث في الأعضاء المذكورة ألما وعذابا، ونلحظ مع آية أخرى أن الألم العضوي الناجم عن استهلاك الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير يسميه القرآن : رجسا:

﴿إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم الخنزير فإنه رجس﴾ الانعام/145، في الوقت الذي يعد العداوات وأشكال الكراهية بين المتقامرين : رجسا كذلك : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ المائدة/90. وهكذا فالأطعمة المحرمة تحتوي، من غير شك، على مركبات كيميائية أو كائنات مجهرية ضارة بالجسد الإنساني تسبب له اختلالات ومشكلات صحية كثيرة سماها القرآن رجسا، أي عذابا ومرضا جسديا، كما يسمي الانشغال الذهني والهواجس النفسية الناجمة عن العداوة بين المتقامرين : رجساً كذلك، أي عذاب، لكنه هنا عذاب نفسي، إذن فالرجس عذاب، معاناة وشقاء، والعـــذاب رجس ، فالرجس حالة مرضية، تعرض للنفس والعقل معا، يعيش المصاب به، تبعية تامة للهواجس والتصورات الخاطئة (على

المستوى النفسي )، وتبعية للآراء والاعتقادات السائدة (على المستوى العقلي). إن الرجس يعني :" تراكمات" إدراكية، توالت على الوعي واستبدت به فمنعته من إجراء محاكمات حرة متبصرة، في إدراك ذاته والعالم الخارجي من حوله، هنا يتعين دوما التطهر من تمثلات الوعي السابقة، لكي يفسح المجال لأخرى جديدة تحل مكانها، وهذا ما يحقق الشرط الأهم للتقدم الدائم للعلم والمعرفة.

الأحكام الشرعية والسنن والكونية :

لماذا تم نقل المعنى في لفظ "المطهرين" من الحسي إلى المجرد؟، من "إزالة أوضار الجسد بالماء " إلى " إطراح المعارف والتصورات السابقة ؟ بواسطة النقد والمراجعة،ثم التجاوز؟. قد يكون السبب هو أن تشير علينا النصوص بأن ملكاتنا الذهنية في حاجة إلى تطهير دوري متكرر كحاجة الأعضاء الجسد تماما، فعند التأمل ندرك إن القرآن الكريم كثيرا ما يدمج ويماثل بين الحقائق الدينية والكونية، بين أحكام النصوص الإنشائية : (افعل ـ لا تفعل) وبين معاني النصوص الخبرية، من السنن والكلمات الإلهية، كمثل قوله تعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ البقرة/251، وقوله كذلك : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ غافر/51، وكقوله : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ القصص/88، إن معاني هذه الآيات الخبرية وغيرها من الآيات التقريرية، مفروضة على الكون والتاريخ، كفرض : ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ الأنبياء/60، فكلما ت الكتاب، إنشاء كانت أم خبرا، أي تشريعات أم سنن اجتماعية وكونية، إذا انتهكت، أوقعت بصاحبها، فردا كان أو جماعة أو أمة، أنواعا مختلفة من المشكلات والأزمات، أي رجسا، وهو شقاء الدنيا ونغص العيش؛ لأن الشريعة بأوامرها ونواهيها، متناغمة مع حقائق الكون وسنن التاريخ والمجتمع، وهذا يعني إن إنشاءات

الكتاب تتكامل مقرراته وأخباره، فالحياد عن تعاليمه : ( الشريعة ) كالحياد عن سننه وقوانينه التي تضمنها نصه الخبري، وهي قوانين تطور المجتمع والتاريخ وواقع الكون والمادة، فكل حياد، يقود حتما إلى الرجس، أي العذاب : فقر وتخلف وأمراض وأزمات مادية ونفسيـــة، ولهذا جاء في الكتاب : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره إن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ النور/63 وليس " أمره" هنا ما يعرف عند الأصوليين بنقيض " النهي" ولكنه " التدبير، والقانون والسنة "، بالمفهوم نفسه في قوله تعالى : ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ الأعراف/ 54، وهو المفهوم المذكور في قوله تعالى : ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا﴾ الطلاق/8، فالعتو من القرية لم يكن عن التعليمات اللفظية للشرائع المترلة، ولكن، وبالدرجة الأولى، عتو عن "السنن" الاجتماعية والكونية التي لم يعملوا عقولهم في كشفها واستغلالها في حياتهم فتأزموا ورجسوا.

إن الكثير من الحكم والفوائد والأسرار التي تنطوي عليها التعاليم الدينية تتجلى واضحة للعيان، إذا قورنت هذه التعاليم بقوانين الطبيعة والحياة وتُؤُملت في ضوئهما، لان الروح والمادة، الغيب والشهادة، تتقارب حقائقها. وتتداخل فيما بينها أكثر مما نعتقد، ونحن نجد إن معظم الشعائر والعبادات في الإسلام تؤدى في هيئات جسدية مخصوصة، كما يرتبط توقيتها بأوضاع فلكية محددة، للشمس والقمـــر والأرض وحركاتها، ومعظم العبادات المفروظة، المعتقد "بغيبيتها" وبعدها أو تعاليها على الحكمة والتعليل، كما يردد علماء الأصول"35" تبدو؛ عند التأمل، قريبة جدا من حقائق العالم المادي، من هنا ندرك إيجاب الدين تطهير الجسد : (الوضوء والغسل) فالأعضاء، لصحة العبادة ولسلامتها هي ذاتها، تطهيرها، يكافئ ويناظر تطهير الملكات الذهنية والعقلية، لصحة الإدراك وسلامة التصور الذي تنتجه هذه الملكات، سواء بسواء إن

النفي الذي تضمنته الآية: (لا يمسه)، يشير إلى قانون عام تخضع له المعرفة الإنسانية في كل مراحلها التاريخية، قديما وحديثا، وهو إننا لكي نعرف، فإنه يتعين علينا أن نتطهر أولا مما نعرف"[36] وتأثير هذا المعروف على أذهاننا.

إن كل معرفة تبدأ في أول أمرها كشفا للمجهول، غير أنها، تتحول، إذا طال التمسك بها حقبة من الزمان، إلى أكبر عائق أمام انبثاق معرفة جديدة، في مثل هذه الحال ينبغي مراجعتها ونقدها وتأكيد شروط الاجتماعية والحضارية الخاصة، ونسبيتها التاريخية، وبهذا فقط نتطهر منها ونتحرر من هيمنتها،لينفتح ذهننا على وعي جديد بأنفسنا وبالعالم من حولنا،فالمعرفة الإنسانية،وفي كل مرحلة من تاريخ تكونها، هي سليل معرفة سابقة عليها دوما، فمعرفة المرحلة الراهنة، تنبثق من السابقة، ولكن لا تتجاوزها، أو تضيف إليها إلا إذا انتقدتها أو أشارت إلى قصورها وأخطائها، حتى كأنه لا معرفة دون تفنيد معرفة سابقة.

إن للتطهر مفهوما يقترب من مفهوم التزكي في القرآن : عودة النفس على ذاتها بالمراقبة والنقد، لأنها إنما يكبح جماحها إذا ما تعرفت على رغباتها، الخفية والظاهرة، والجدير ذكره أنْ ليست مفضلات النفس ومكروهاتها، الموضوع الوحيد للمراقبة والنقد، في التطهر القرآني. بل منتجات الإدراك الواعي كذلك، من الآراء والأفكار والتصورات والعقائد السائدة والمدونة.

إن مجمل التجارب الإنسانية، في العلم والفن والنظر، حكمة نفيسة، تكسب العقل المطلع عليها مرانا قويا على المحاكمة الصائبة وحد بين الحقيقة وتوسيع دلالات الأشياء، غير إن هذه الحكمة ذاتها، تتحول، بمرور الوقت، قوة آسرة تكبل العقل وتمنعه، إذا لم يتحل بروح النقد، من شق طريق مغاير نحو المعنى البديع للأشياء، وهكذا، فالتزود بالتجارب السابقة لا مفر منه، من أجل تعميق الرؤية، لكن التطهر

من تأثيرها، في ذات الوقت، ضروري، حتى نتمكن من إعادة تأويل العالم والنص. وهنا قد يثور سؤال في الأذهان : لماذا تمسنا الحاجة وبشكل دوري متكرر في التاريخ، إلى إعادة التأويل والفهم، أو إلى تغيير الوضع القائم، من المعرفة والتصورات الكونية والغيبية، وتحريكه ؟ والجواب: لأن بقاء الوضع القائم على حاله، واستمرار التأويل السابق دون تجديد، وسط عالم متغير دائم الحركة، يسبب لنا، في حياتنا الاجتماعية والثقافية، رجسا وعذابا.

نقدّم هذا التأويل لآيات سورة الواقعة، مُقرّين تأثّرنا بالوضع المعرفي الرّاهن، ومستخدمين نتائجه في فهم النص وتفسيره، كما نهج السلف معه قديماً، في حدود إمكاناتهم المعرفية المُتاحة لهم في أيّامهم، لأنّهم كانوا، كما نحن اليوم نتاجاً تاريخياً، في مستويات فهمهم للخطاب الإلهي، وإدراكهم لمعانيه ودلالاته، "فما من كائن أو مجتمع بشري يستطيع أن يرى العالم الذي نعيش فيه بمنظار جديد، فهو يولد في وسط حدّدته سلفاً الأنماط الثقافية القائمة"[37] وتبعاً لهذه الأنماط نفسها يتحدّد فهم المجتمع وأفراده لمضامين الخطاب، فقهاً كانت أو تفسيراً أو تصوّرات غيبية: (عقائد)، فإدراك أيّ جيل وتمثله للأشياء من حوله، وقراءته لها، لا يمكن عدّه نموذجياً أو مثالياً، طالما كان نتاج ظروف تاريخية (ثقافية واجتماعية) محدّدة، التفسير بأشكاله المختلفة، سواء كان استنباطات فقهية أو تأويلات عقدية، أو شروحاً لغوية، إنّما هو الوعي بالنص، في ظل ظروف مؤقّتة وعابرة، أي في سياق اجتماعي وثقافي محدّد، وهذا ما يرينا تاريخية المعنى والتأويل، وارتباطهما بالواقع والظروف التي قرئ النص فيها، وأنّهما لا يمكن أن يُستخلصا من النص وحده كما تدعوا إلى ذلك قواعد التفسير التقليدية. والسبب هو أن الخطاب الإلهي يحيل دوماً على الواقع الخارجي، فإن تغيّر هذا الواقع، على الصعيد الثقافي والاجتماعي، فإن ذلك يقود إلى تغيّر المضمون عند المتأول والشارح، إذ لا

تفسير إلاّ في سياق وهذا السياق هو الذي يضغط بتفصيل معنى واختيار تأويل على آخر داخل الإمكانات غير المحدودة التي يتمتع بها الخطاب ويبيح بها عبر السياقات الاجتماعية والتاريخية المختلفة.

## الهوامش

"1" أنظر تفاسير السابقين، من عهد القرّاء القرن 2 الهجري. ج3، الآية، إلى ابن كثير القرن 8 الهجري، ومثلها التفاسير المعاصرة التي يلج أصحابها عالم النص الإلهي بثقافة السابقين ورؤاهم. فيكرّرون دلالاته التقليدية التحرير والتنوير، و: صفوة التفاسير، لابن عاشور والصابوني على الترتيب.

"2" الرازي: التفسير الكبير الآية.

"3" يقول الزمخشري:"إدخال"لا" النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم." ثم يورد بيت الشعر الجاهلي هذا، وكذلك يرى الفراء أن التعبير القرآني :( لا أقسم بيوم القيامة) كقولك في الكلام:لا والله لا أفعل ذاك، و:لا والله إن الرسول لحق، وأنت تكذب قوما أنكروه ." الفراء، معاني القران، الواقعة 79، 3 : 207، والزمخشري: الكشاف، الآية ذاتها، 4 :658 .

"4" حين تقرأ خطبة الوداع للرسول (ص)، التي بلغتنا باللفظ، يفوتك معظم جمالها، ولا تحس بتأثيرها في نفسك، كما لا ينسلس لك إيقاعها إلا أن تقرأها بصوت مرتفع، ولو في نفسك طبعا، إن الموقف العام الذي جرت داخله الخطبة، هو الذي صاغ أسلوبها واصطفى جرس ألفاظها ؛ ثم أملاه إملاء، حتى دون وعي واضح من صاحب الخطبة، فعناصر الموقف هي التي دفعت إلى إنتاج نص ذي إيقاع مرتفع وألفاظ مديدة الصوت، هذه العناصر هي:1 ـ وداع الإنسانية، 2 ـ موسم الحج الحافل وحشد عرفات، 3 ـ نية تبليغ الحشد الحاضر، والأمة من بعده، وصاياه وتشريعاته، إن الموقف وعناصره أنتج خطابا جهريا فقط، وهو نصف الطريق الى خطاب جهري مرتل ؛ لأن الترتيل:( الغنائية ) تهيئة إلهية خاصة للخطاب (ورتلناه ترتيلا ) .

"5" أنظر ، ابن منظور: لسان العرب، ( دار المعارف، القاهرة، د ت )، مادة: ر ت ل.

"6" أنظر، لسان العرب، مادة: قرأ.

"7" فاللغة، في ذاتها إنما هي: " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "، ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ( دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ) 1: 33 . وأنظر كذلك: DE SAUSSURE: (dans la langue، au contraire، il n' y a plus que l'image acoustique ) . COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE، Alger، P 32. (1994 وزكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ( مكتبة مصر ، د ت ) ص 49 حيث يقول: " وبالمثل، لا يمكن في مضمار اللغة

فصل الصوت عن الفكر أو فصل الفكر عن الصوت ." غير أن النص الديني عموما والقرآن خاصة، ارتقى عن مجرد التعبير بالصوت، درجة أخرى نحو التأثير بالصوت في التعبير، والذي يحققه التركيب المتفرد لألفاظ النص وحروفه، لم يبحث علماء القرآن والتفسير أثر التأليف الغنائي أو الترنيم بالصوت في توليد الإيحاءات والمعاني والتصورات، في نفس التالي أو المستمع، إن تجييش الخيال والفكر يسبقه إثارة العاطفة وإذكاء المشاعر بواسطة الإيقاع الرخيم الذي يحفز العقل على تكوين أبدع التصورات بالنص، ليس الأمر الإلهي إذن بتنغيم الوحي عبثا فالغاية من صياغة الشكل وترنيمه إنما هي: كشف المضمون.

"8" أنظر، شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني ،( عالم المعرفة، الكويت، مارس 2001 ،عدد 267 ) ص 287 .

"9" محمد رشيد رضا، تفسير القران الكريم، أو تفسير المنار، دار المعرفة ، بيروت، د ت ) 1: 446، الآية 121 من البقرة.

"10" في الإسلام ثلاثة أنماط مختلفة لتهجية الخطاب: القراءة، والإنشاد، والتلاوة . فالقراءة تطلق على تهجية أي نص لغوي، وهي في جميع الأحوال: ـ قراءة، بغض النظر عن لحنها وإيقاعها، غير أن قراءة الشعر تسمى على وجه الخصوص: إنشادا، أما خصوص قراءة الوحي فتسمى: تلاوة ، وهذه الأنماط الثلاثة لتهجية الخطاب ليست ناجمة عن تشكيلات صوتية فحسب، ولكـــنها نتـــاج تركيب أسلوبي وتأليف لغوي ؛ فنحن لا نستطيـــع أن ننشد، مثلا، قوله تعـــالى: ( الم، غلبت الروم في أدنى الأرض ،وهم من بعد غلبهم سيغليبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ) .الروم /01 . فالترتيب الخاص لكلمات الآية لا يسمح بغير التلاوة لها، لأن الترنيمة التلاوية هي وليدة هذا الترتيب، وليس العكس، فـــ: " رتلناه " تعني ألفنا كلماته بشكل يولد إيقاعا معجزا . إن إعلان هذه الحقيقة التي صدقها الواقع التاريخي والجغرافي لفلسطين، بدقة حرفية، لم يؤد في النص القرآني بأسلوب تقريري وصفي متقطع، كما هو الحال في النثر التاريخي المعهود، ولكن بأسلوب غنائي مرتل، زاد من كثافته الغنائية التمهيد الصوتي: الم، الذي، وإن كان صوتا بدون مضمون إلا أنه له تأثيرا موسيقيا في تحضيرالذهن لاستقبال الإعلان،نحس،لو حذفناه،ببداية مفاجئة: غلبت الروم .

"11" دانيال غولمان :الذكاء العاطفي،ترجمة ليلى الجبالي ،عالم المعرفة ،الكويت ،أكتوبر2000،العدد262،ص25 .

"12" ستيفن هاوكينغ، موجز في تاريخ الزمان، ترجمة عبد الله حيدر، أكاديميا، بيروت1990، ص60.

"13" سيفن هاوكينغ: مجز في تاريخ الزمن، ترجمة عبد الله حيدر، أكاديميا، بيروت 1990، ص 47

"14" وليام كاوفمان: المجرات والكوازرات، ترجمة عبد الكريم السمرائي، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1989، ص 157.

"15" أنظر: نظرية الثقافة، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، الكويت 1997 عدد 223: " أنماط الحياة هي التي توجه الفكر والسلوك لدى الأفراد " ص 32 . ففئات التقليد والمحافظة عندما يملكون من التبريرات " الشرعية " ما يرونه كافيا ومقنعا " ضد أي تغيير في تفسيرات النصوص " وتجديد معاني النصوص، تمهيد لا بد منه للنهضة والإصلاح .

"16" تسمى هذه الظاهرة بالتقليد ، وهو متابعة الرأي الشائع حول مسألة ما ،أو هو عدم اختراق حدود المعرفة السائدة، أي التداول المستمر ،عبر الزمن، لرؤى وأنظار ومحاكمات السابقين، حول العالم والنص. التقليد في تجلياته الاجتماعية، وفاء للمواقف النظرية والمفاهيم الموروثة عن الأجداد، أنه يشكل بهذا الوفاء ثقافة قارة ،تتضمن أجوبة ثابتة ومكررة ،عن الحياة والمجتمع والمصير، أي السكون المعرفي التام ،لا شيء مجهولا يتحول إلى معلوم،فأعلى درجات العلم في هذه الثقافة ذات المجتمع التقليدي هي: معرفة ما علمه الأولون ،أما كشف معرفة جديدة بالأشياء واستنباط مفهومات ومعاني مخالفة للحصيلة المعرفية القائمة، أي تحويل المجهول إلى معلوم، فذاك يعد خارج العلم النافع المفيد في نظر المجتمع، أما الجامعات ودور التعليم العالي في المجتمع التقليدي فهي استمرار للمنهج " المدرسي " المتبع في الطور الإعدادي: تلقين المعلومات السائدة مع أن المطلوب هو مناقشتها والتشكيك فيها . أنظر ،جاكوب برونوفسكي: التطور الحضاري للإنسان، ترجمة أحمد مستجير ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ص249 حيث يرى: "أن سبب انهيار الحضارات السابقة هو سكونها الثقافي: الابن يفعل ما يفعله الأب، والأب ما يفعله الجد " .

"17" أنظر، السيوطي: تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك، ( دار الكتب العلمية، بيروت د ت ) الجزء الأول، ص 203، باب: الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ،"قال مالك: ولا يحمل أحد المصحف بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر ...الخ " نفسه، وأنظر كيف تمت زحزحة الموضوع من "القرآن" إلى " المصحف " مع أن هذا غير مشار إليه في الآية

"18" ابن منظور: لسان العرب ،(ط، دار المعارف ،د ت )، مادة: م س س .

"19" تفسير ابن كثير، الآية .

"20" لو أن اللغويين وأصحاب المعاجم لم يطلعوا على تفسيرات التابعين، لكان أعظم فائدة لنا، في التعرف على المعاني الأصلية لألفاظ القرآن قبل تأثرها بالتأويلات الثقافية للمفسرين الرواد، معنى اللفظة في معجم الخليل أهم من معناها عند محمد بن إسحاق أو ابن جريج .

"21" ابن منظور، اللسان، المادة: ك ن ن .

"22" في مادة: ع ول، ينقل ابن منظور عن: " أهل التفسير" "عا ل: جار ومال، ( ذلك أدنى ألا تعولوا ) النساء/4 ، أي أقرب ألا تجوروا تميلوا " غير أن الصواب قد يكون ما ينقله في الأخير عن الكسائي: " عال: افتقر " ؛ اذ أن ألا عدل مع ذي الزوجة الواحدة منتف أصلا، ولا يقال له: ذلك أقرب أن تعدل، يعدل بين من ؟

ولكن يقال له: ذلك أقرب ألا تفتقر . وفي مادة: ض ن ك، ينقل عن المفسرين في: الضنك، أنه عذاب القبر، ثم يضيف: " ومعناه والله أعلم واد في جهنم " وكان خليق به الاقتصار على: " أصل اللغة للفظ الضنك، وأنه الضيق والشدة، وبهذا المعنى الأخير، يمكننا في ضوء الآية 124 من سورة طه شرح أسباب القلق في الحياة المعاصرة، بسبب ضعف الشعور الديني، أما معنى المفسرين فهو ظاهر البطلان، فالنص القرآني لا يحدثنا عن معيشة ضنكا ؛ عن مشاعر اليأس والاحباط في الحياة ، فما الذي أقحم " عذاب القبر " أو "واد في جهنم " في معنى الآية ؟ إننا اليوم، لا نبني تأويلنا للنصوص على فهم أو تأويل سابق، ولكن على " أصل المعنى " لمفردات القرآن . و أنظر كذلك معنى " الويل " في لسان العرب، عند اللغويين وعند المفسرين، فما يذكره أهل اللغة أصح دوما، أي أصلح لبناء التأويلات الجديدة والتحيينات المعاصرة.

"23" التأويل حكمة والحكمة تأويل، لقد دعا النبي ( ص) لابن عباس: اللهم علمه الكتاب: وفي رواية: (( اللهم علمه الحكمة )) صحيح البخاري، الحديث رقم 75، وقد صدق التاريخ دعاء النبي ( ص ) فابن عباس اكبر مفسري الصحابة والتابعين، ومعلم الكتاب كمعلم الحكمة، يعبر عن وصف واحد: معلم التأويل، اما المأثور بان الحكمة هي السنة، فبعيد عن ظاهر نص القرآن والحديث وواقع التاريخ واللغة، وهي معايير لتمييز المعنى الصحيح من غيره.

"24" اكبر منجزات الحضارة الحديثة هو اكتشاف العقل لتاريخيته، فكل معقولا ته من العقائد ،والتصورات ،والبناءات الفلسفية والتاويلية للعلم والنص ،هي انعكاس للظروف الاجتماعية والثقافية، الخاصة والعامة ،التي يعيشها ،وتعبير عنها، غير إن هذه الفكرة في ثقافتنا الإسلامية، إما أنها مقاومة أو غير مفهومة ،أنظر . كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري، عالم المعرفة، كانون الثاني 1986. الكويت.2: 383 .

"25" أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (دار الكتب العلمية، بيروت 1993 ) 8 :213 .

"26" تزمين الفكر والتصورات: نسبتها إلى الفترة التاريخية التي ظهرت فيها .

"27" تبيئة المسائل الثقافية والفكرية: تحديد العوامل الموضوعية والنفسية، في مجتمع ما. باعتبارها مسئولة عن إثارة هذه المسائل وصياغتها علينا أن نعلم بأنه من المجتمع والتاريخ تنشأ، واليهما ترتد. كافة أشكال العبقرية الإنسانية، فلله لم يختص جيلا دون جيل، ولا أفراد فترة من التاريخ دون أخرى، بالفهم الامثل للقرآن، أو بالتدين النموذجي، سوف نكون مطهرين من تصوراتنا ومحاكماتنا العقلية السائدة، إذا نحن في تفسيرها ووقفنا على إسهامات المجتمع والتاريخ في تشكيلها، أي إذا قمنا (( بتبيئتها )) تفسير الوعي أو التطهر منه يتحقق بالقدرة على الانفصال عنه، إن تفسير الوعي لذاته، أو (( التطهر )) بالمفهوم القرآني، هو أسمى مراحل تقدم العقل الإنساني، اما التقديس الذي يضفيه مجتمع ما، أو فئة منه، على ظاهرة طبيعية أو إنسانية، فمبعثه الفشل في تفسيرها، أو عدم إرادة هدا التفسير، كما هو حالنا اليوم مع إبداعات السلف وتدينهم .

"28" مما يتفق مع حكمة سقراط :" اعرف نفسك بنفسك" يقول احد علماء النفس المعاصرون :" إن الوعي بالذات: self - awarenesse " "بمعنى الانتباه إلى الحالات الداخلية التي يعيشها الإنسان، ويهدا الوعي التأملي للنفس يقوم العقل بملاحظة ودراسة الخبرة نفسها بما فيها من انفعالات". دانيال غولمان: الذكاء العاطفي. ترجمة ليلى الجبالي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون – الكويت، العدد. أكتوبر 2000، ص 75.

"29" أنظر: ألكسيس كارل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، (مكتبة المعارف، بيروت 1986) ص174 .

"30" أنظر:طه عبد الرحمن: القول الفلسفي، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت، 1999) ص252، حيث ينقل عبارة تشيع في أوساط علماء اللغة: يعرف المعنى من يعرف مقابله، وهنا يمكن مد العبارة لتشمل قضايا الفكر الإنساني: يعرف المفهوم من يعرف مقابله .

"31" ستيفن هاوكينغ: مرجع سابق، (إذ يذكر أن اكتشاف البوزيترون على يد ديراك سنة 1932 أو: الإلكترون المضاد (antiélectron) كان سبب منحه جائزة نوبل في الفيزياء سنة 1933 ) موجز، ص89 .

"32" أدرك القدماء، ولو بشكل بسيط، معنى الثنائية اللفظية والموضوعية للقرآن، فعن سفيان بن عيينة: " مثاني: ذكر الشيء وضده"، تفسير ابن كثير، الآية، كما ينقل ابن منظور عن أبي عبيد القاسم بن سلام:" يسمى جميع القرآن: مثاني، لاقتران آية الرحمة بآية العذاب "اللسان :
ث ن ي، وهذه أسس نظرية كافية لبناء فلسفة كونية ذات قيم ثنائية تقابلية، تحرك هذه القيم الخلافية المتصارعة، المجتمع والتاريخ، وتتغلغل في بنيتهما .

"33" ابن منظور: لسان العرب، مادة، رجس، رجز، قذر .

"34" يتضخم التفكير الغيبي عند سلفنا، فيرون في الوعيد الإلهي بالعذاب والرجز والفتنة لمن يخالفون عن أمره، يراه عذابا أخرويا مؤجلا ليوم القيامة، مع أنه وعيد بشقاء الحياة الدنيا وتأزم الوضع النفسي والاجتماعي للمخالفين والمعاجزين، في الدنيا قبل الآخرة، فمعاجزة الآيات، كمخالفة أمر الله: تحدي السنن الاجتماعية والكونية، لا مخالفة الأمر الشرعي فقط .

"35" أبو إسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت. د.ت، 308/2 .

"36" ليس هذا وفق المفهوم الشائع بين الصوفية بأن " المعرفة حجاب " وأن المعتبر هو: "العلم اللدني" المتعالي على الحس والعقل، والمتلقي عن الله مباشرة، إنه عمى ابستمولوجي وتقويض صريح للأساس الذي يقوم عليه العلم. فالتخلي عن المعرفة لن يكون مجديا في شيء إلا إذا كان لصالح معرفة أخرى أكثر انسجاما مع الوقائع الخارجية.

"37" رالف لينتون: الأنتربولوجيا وأزمة العالم الحديث ،ترجمة عبد المالك الناشف المكتبة العصرية صيدا بيروت 1967ص 191.